
أولادنا
معروف فى بلاد الفلوس
تأليف
يعقوب الشارونى
دار المعارف



٤٣

معروف فى بلاد الفلوس

تأليف

يعقوب الشارونى

رواية قصيرة

رسوم

عادل البطراوى



دار المعارف



تنفيذ المتن والغلاف – بالمركز الإلكترونى – دار المعارف



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

"خذ حذرك يا عم معروف.. سن المخراز التي تثقب بها الجلد ستدخل في يدك!". وفي الحال توقفت عن العمل في إصلاح الحذاء الذي بين يدي، كما توقفت عن حكايتي التي كانت السبب في ذهولي عن المخراز.

وعادت الصغيرة "نسمة" تقول في شغف: "وماذا فعل الجني بالصياد المسكين؟".

قلت: "تقول الحكاية القديمة إن الصياد نجح في إرجاع المارد الشرير إلى الوعاء النحاسي الذي كان سجينا فيه..".

ثم تمهلت قبل أن أضيف: لكنني سمعت نهاية أخرى للقصة!".

قالت نسمة ضاحكة: "ونحن نحب سماع نهاياتك الجديدة.. هل أخذ الصياد الجني ليتفرج عليه أبناؤه؟!".

لكنني اكتفيت بان قلت: "لقد انتهيت من إصلاح أحذيتكما، خذاها حتى لا تتأخرا فتغضب أمكما".

بعد أن غادرت نسمة وأخوها دكاني، أخرجت أمامي العملات القليلة التي كسبتها من عملي خلال النهار وهمست لنفسي.



"كان النهار طيبا، سعدت فيه بصحبة زبائني الصغار، ضحكنا ومثلنا الأدوار وعشنا لحظات مع الخيال، لكنهم فقراء مثلي يعيشون بالآمال والأحلام، وكل فلوسهم لا تكفي لشراء الكنافة بعسل النحل التي طلبتها زوجتي. يسميها جيراني "الصياحة" لأنها تصيح كلما بدأت أتحاور معها حول أي شيء".

❀✿❀✿❀✿❀✿❀✿❀ ٥ ✿❀✿❀✿❀✿❀✿❀✿

قلت لزوجتي: "بقليل من الخيال نستطيع أن نأكل كنافة بعسل القصب ونتصورها بعسل بعسل النحل!" لكنها كعادتها صاحت قبل أن أكمل عبارتي: "هل تريد بالخيال أن تقلب العسل الأسود إلى أبيض؟".

ضحكت بغير صوت وأنا أقول لنفسي: "والله لولا خيالي ما جاء لي واحد من هؤلاء الصغار لإصلاح أحذيتهم!".

ثم أغلقت دكاني وسرت إلى البيت. وفي الطريق تنبهت إلى دكان بائع الكنافة فتوقفت أمامه حائرا، فلما رآني صاحبه وكان يعرفني قال مرحبا: "مالك يا رجل"؟.

أخبرته بقصتي مع زوجتي وختمتها بضحكة اختلط فيها الأسف بالسخرية وأنا أقول:

"ومع أنني أتخيلها دائما مليحة صبوحة وأفضل الزوجات، إلا أنها تصر بصياحها على إعادتي إلى واقعها الأليم!"، فضحك الكنفاني وقال: "لا تقلق.. خذ الكنافة وادفع عندما تستطيع".

ثم وزن كمية مناسبة وقال: "سأضع على الكنافة ما تحتاجه من سمن، لكن ليس عندي إلا عسل قصب أسود إنه لذيذ الطعم بل تفوق حلاوته حلاوة العسل الأبيض".

قلت: هاتها باي عسل واذا استطعنا أن نتناسي اللون فمن السهل أن نتصورها بعسل النحل!".

عندئذ أعد البائع الحلوى وأغرقها بالسمن وعسل القصب، وسلمها لي وهو يقول: "هذه كنافة تناسب الملوك!".

قلت: "سأغمض عيني وأنا آكلها وأتصور نفسي على مائدة السلطان!".

وافترقنا ضاحكين.





وما إن رأتني زوجتي حتى صاحت: "هل جئت بما طلبت؟!" فوضعت أمامها ما معي! تأملت المرأة الحلوى. وبدل أن تفرح بها وترضى، دفعتها بعيدا عنها وقد اكفهرت ملامحها وصاحت: "أنت لا تعمل إلا على إثارة غيظي وغضبي! لماذا أحضرتها بهذا الأسود الذي يشبه حياتي معك؟!".

قلت وأنا أتمسك بهدوئي: "الكنفاني قال لي: أغلق عينيك وأنت تأكلها، فتتصور نفسك على مائدة السلطان!!".

هنا انفجر غضبها واندفعت تصيح: "أيها الجيران.. هذا الرجل يريد قتلي غيظا!!".



وأسرع الجيران يدخلون وصرخاتها تتزايد وهي تردد كالمجنونة: "جائع ويحلم بمائدة السلطان!!.. أنقذوني من أحلامه مع السلطان!!" ولم تكتف بالصراخ، بل دفعتني ومعي الجيران خارج باب البيت، وصاحت وهي تغلقه من الداخل: "ولن تدخل إلا إذا أحضرت ما طلبته!".

ولم أجد شيئا افعله إلا أن أبتعد عن البيت!

كانت الليلة ممطرة والماء يتدفق من السماء كالسيل،، فأسرعت أبحث عن مكان أحتمي به، فوجدت سلسلة من خرائب القصور القديمة احتميت داخل بناء منها وأنا أستحضر في خيالي كيف كانت الحياة تملأ نفس هذه القصور عندما كانت عامرة بالناس.

وبدأ النعاس الشديد يغالبني فتمددت فوق الأرض وأنا أهمس لنفسي بأمنية لم أتصور لحظة أنها ممكنة التحقيق.. قلت:

"هل يمكن أن يأتي من يحملني من هذه القصور الخاوية إلى قصور عامرة في بلاد لا تعرف زوجتي النكدية الطريق إليها؟!".

وما إن انتهيت من تلك العبارة التي لم تكن تزيد على هلوسة أحلام، حتى رأيت الحائط الذي أمامي ينشق ويخرج منه عملاق ضخم كالشجرة طويل كالنخلة، ويقول بصوت له رنين كالصدى تخالطه رنة عتاب:

"لماذا أقلقت راحتي يا رجل؟! إنني أسكن هنا منذ مائتي عام ولم يفعل أحد ما فعلته أنت الآن!".

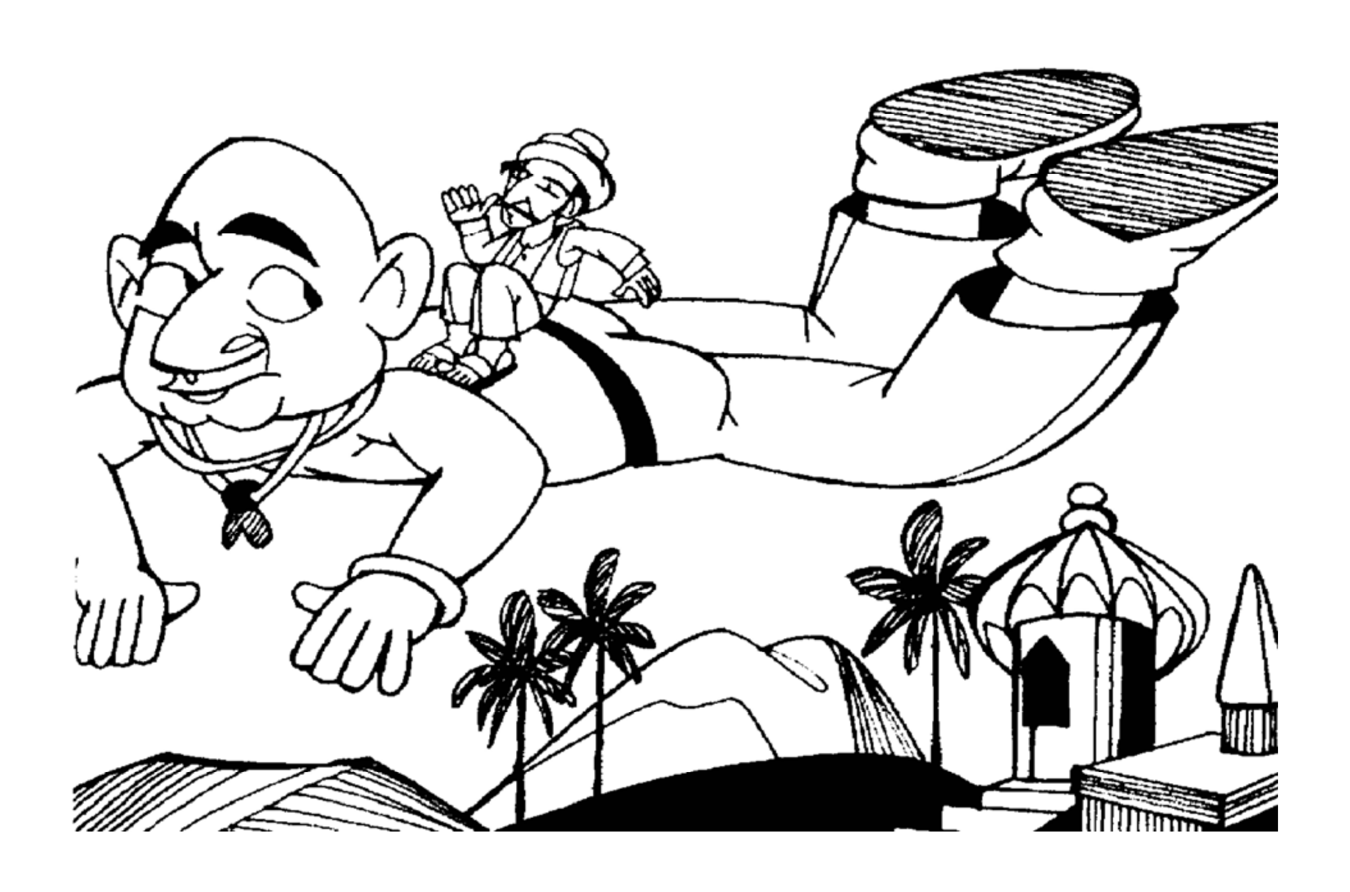
قلت وأنا أرتجف: "لم أقصد ما قلت!".



تنهد كأن الريح تهب وقال: "لم أصادف شخصا له مثل خيالك.. أحلامك هي التـــي أقلقتنـــي.. تريد أن تملأ الحياة هذه القصور؟! أين أعيش إذن على حريتي؟! هيا.. اخبرني بحاجتك!".

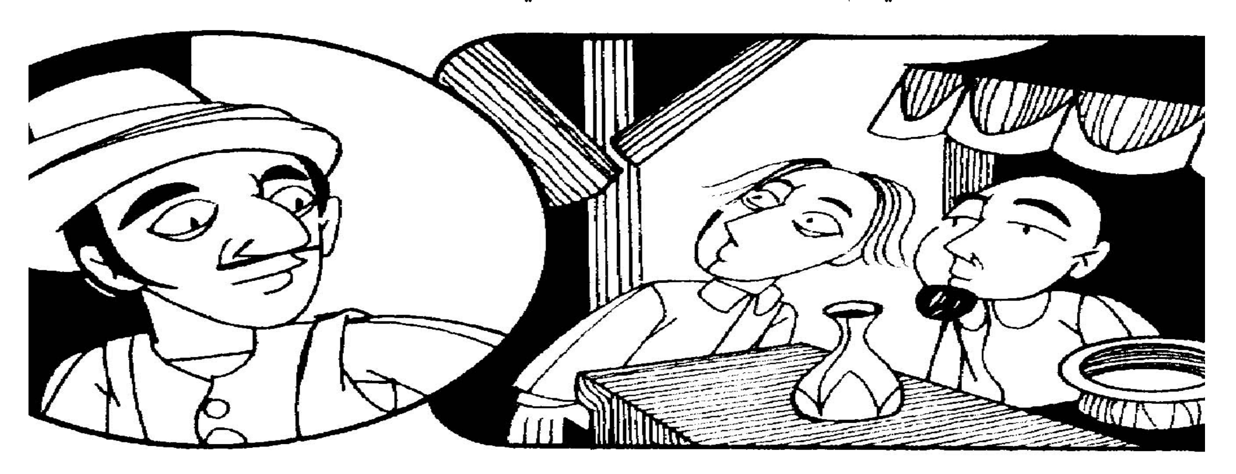
وفي كلمات قليلة أخبرته بما تفعله زوجتي بي، فقال في استنكار: "بمزيد من الخيـــال كان يمكن أن تواصل الحياة معها.. لكن هيا، اركب فوق ظهري مادمت لا تجد مكانا تبيت فيه هذه الليلة!".

وهكذا وجدت العملاق يحملني ويطير بي وأنا أرتجف من شدة الخوف. وظل يطيـــر من بعد أذان العشاء حتى طلوع الفجر، ثم أنزلني فوق جبل واختفى.



عندما ظهرت أضواء الصباح رأيت مدينة يحيط بقصورها العالية أسوار مرتفعة، فدخلت من باب السور حتى وصلت السوق وأنا غارق في أفكاري.. كنت أهمس لنفسي: "هل أعيش في الخيال أم أن أحلامي تتحقق؟!".

ولشدة استغراقي لم أتنبه إلى أن كل من يقابلني كانت تظهر عليه علامات الدهشة!



وتجرأ رجل فاقترب مني يسألني: "هل أنت غريب يا رجل؟ من أي مدينة أتيت؟".

قلت: "أنا من مصر المحروسة، وقد فارقتها أمس عند العشاء".

ولدهشتي الشديدة ضحك الرجل في سخرية، وصاح فيمن حوله: "تعالوا اسمعوا هـذا الرجل العجيب!!.. يزعم أنه خرج أمس من الديار المصرية!!".

وبسرعة تجمع الناس حولي يضحكون ويقولون: "هل أنت مجنون يا رجل؟!".

ولما كنت أعرف أنني أكثر عقلا من أي واحد ممن تجمعوا حولي، فقد قلـت: "هـل مجرد اختلاف لهجتي عن لهجتكم يحملكم على الاعتقاد بأنني مجنون؟!".

قال رجل منهم وملامح وجهه تؤكد شكوكه في سلامة عقلي: "كيف فارقـت مـصر بالأمس وبيننا وبينها سفر سنة كاملة؟!".

وفوجئت بهذا الذي قاله الرجل، لكنني تذكرت كيف أتنقل كثيرا خلال لحظات علـى أجنحة الخيال بين السماء والأرض، فقلت للرجل: "إذا كان عندكم شيء مـن سـعة الخيـال لأدركتم أنني صادق فيما أقول. ها هي قطعة خبز وضعتها في جيبي مساء أمس وأنـا فـي مصر.. إنها طازجة ولم تزل لينة!".

وتركتهم يمسكون قطعة الخبر، يتأملون شكلها بعيونهم ويضغطون عليها بين أصابعهم ويقربونها من وجوههم ليتعرفوا على رائحتها، بل تذوقها أحدهم، ثم راحوا يتعجبون منها لأنها لم تكن تشبه خبز بلادهم!!

عندئذ قال أحدهم: "هذا الخبز شيء حقيقي تدركه حواسنا وليس قصة اخترعها حالم أو مجنون!".

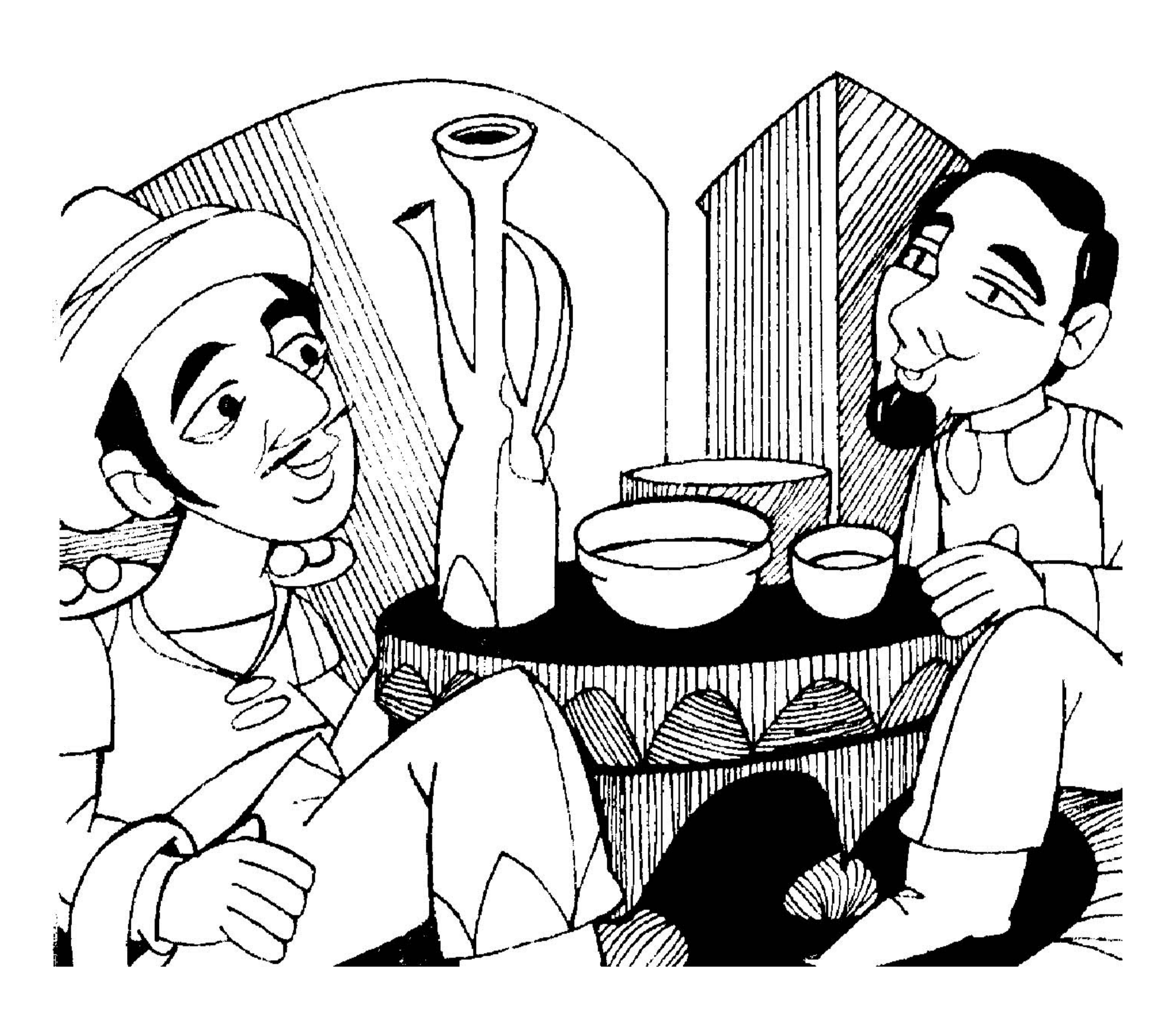
بعد هذه العبارة اشتد التزاحم حولي، كل واحد يحاول أن يتعرف على هــذا الغريــب الذي سقط من السماء في مدينتهم!



في تلك اللحظة أقبل تاجر يركب بغلة في حجم حصان وخلفه خادمان، وعندما عرف أنني من مصر أبعد الناس عني، وسار بي إلى أن دخلنا دارا واسعة، وأمر الخدم فقدموا لـــي ملابــس فاخرة ارتديتها فأصبحت كأنني "شهبندر" التجار.

وأثناء تناول الطعام سألني التاجر وهو يتأمل وجهي بنظرات غريبة: "أنت من مصر، فهل تعرف حتى الدرب الأحمر؟" قلت وأنا أتأمل أيضا ملامح وجهه: "الدرب الأحمــر فيــه بيتي!".

فسألني: "هل تعرف الشيخ أحمد العطار؟".



قلت متضاحكا وقد بدأ شيء يتحرك في ذاكرتي: "بيته يلاصق بيتين وعندما كنت صبيا صغيرا كثيرا ما ذهبت مع ابنه إبراهيم لنقطف الفاكهة خفية من أشجار حديقة الوالي!!".

وكم أصابتني الدهشة عندما سمعت التاجر يواصل بقية حكايتي ويقول: "وذات يوم أمسك بكما حارس الحديقة واشتكى إلى والديكما، فامسك الشيخ العطار ابنه وضربه ضربا مبرحا وهو يصرخ فيه: في المرة القادمة سيقطع الوالي رأسك ورأسي!! وفي المساء اختفى ابن العطار إلى يومنا هذا!".

قلت وقد ازدادت حيرتي وأنا أستمع إلى تلك الوقائع التي أعرفها جيدا: "هذه واقعة لم يعرفها إلا القليلون، فكيف وصلت إليك؟!".

وقف التاجر فجأة في مواجهتي وقد بسط ذراعيه مرحبا وهو يقول: "أنا إبراهيم بن أحمد العطار يا معروف، وأنت زميلي الذي قبض عليه حارس الحدائق معي!".

وانهالت ذكريات تلك الحادثة التي حاولت دائما نسيانها فلم أستطع، فقد اتهمني والد إبراهيم أنني الذي كنت أقود

ابنه إلى تلك المغامرات الخطيرة في محاولة لتقليد أبطال الحكايات والملاحم الشعبية التي كنت أقرؤها بشغف وبغير توقف.

تعانقنا ثم انطلق كل واحد منها يحكي لزميله ما حدث له خلال تلك السنوات الطويلة. قال التاجر إبراهيم:

"كنت صغيرا قليل العقل فخفت أن أكون سببا في إيذاء أبي، لذلك سافرت حتى وصلت إلى هنا، فوجدت أهل هذه المدينة يعيشون من أجل المال ويحترمون من يزيد رقم ما يملك على رقم ما يملكه غيره. قلت لهم.

"أنا تاجر وقد سبقت قافلة الجمال الكبيرة التي تحمل بضائعي".

عندئذ عاملوني بكثير من الاحترام والترحيب، وفهمت السبب عندما سمعتهم يقولون فيما بينهم: "هذا تاجر غريب ومن السهل تجريده حتى من ملابسه!" فقلت في نفسي: "هم يطمعون في إغراقي بالديون، ليسهل عليهم الاستيلاء على تجارتي"، فقلت لهم:

"من يقرضني ألف دينار إلى أن تأتي قافلتي، سأرد له ما أخذت أضعافا مضاعفة".

فتنافسوا يقدمون لي ما طلبت.

وفي الصباح ذهبت إلى السوق واشتريت ثلاثة أصناف مختلفة من الشاي. وفي بيتي خلطت تلك الأصناف معا بنسب معينة كنت أعرفها من مصر، ثم ذهبت أبيعها في السوق، وسرعان ما أجمع الذين اشتروا مني على قول واحد: "هذا تاجر يبيع أفضل ما تذوقنا في حياتنا من شاي".



ربحت في اليوم الأول خمسين دينارا اشتريت بها شايا جديدا.

وخلال أيام أصبح أهل المدينة جميعا لا يبحثون إلا عن "الشاي المصري العجيب!"، فتنافس التجار يشترون مني بالجملة، فكثرت أرباحي ورددت ما اقترضت وفوقه ما يساويه وأكثر، لا يجرؤ أحد على المساس بي؛ لأني سر تركيب الشاي معي أنا وحدي.

وسرعان ما نسي الناس حكاية قافلتي التي لم تصل أبدا".

وأضاف إبراهيم: "وأنصحك يا معروف أن تتوقف عن سرد حكاياتك الخيالية التي تزعم فيها أنك كنت إسكافيا هرب فوق كتفي عفريت، فالناس هنا يسخرون من الخيال ولا يحبون إلا واقع الأرقام والمال!".

قلت: "أنت نفسك تعاملت معهم بخيالك، فلم تكن معك قافلة، ولولا خيالهم الذي هيأ لهم أنهم سيزيدون ثرواتهم عن طريقك لما أقرضك أحدهم شيئا، فكيف تقول إن الناس هنا يسخرون من الخيال بينما هم لا يعيشون إلا على الوهم والأماني؟!".

قال إبراهيم: "خيالي الذي تقول عنه هو واقع الحياة هنا، أما خيالك وعفريتك فهي أمور بعيدة عن تفكيرهم، لذلك عليك أن تستفيد مما تسميه أوهامهم وأمانيهم، وأسميه أنا الطمع والجشع".

سألته: "نتحدث إذن عن الخطوة الأولى!".

قال إبراهيم: "غدا أعطيك ألف دينار ذهبا وبغلة تركبها وخادما يمشي أمامك إلى السوق، فادخل على التجار وسأكون بينهم، فإذا رأيتك أقوم واسلم عليك في شوق، وأظهر لك عظيم التقدير والاحترام فيرتفع قدرك عندهم، وكلما سألتك عن صنف من البضائع عليك أن تقول: أحضرت منه الكثير".



"وإذا سألوني عنك أمدحك وأرفع من شأنك وأطلب منهم أن يخصصوا لك دكانا، وسـيغريهم الطمع في أموالك ويعميهم عن التحري عن حقيقة أحوالك. ولكي تعمي عيونهم عنك، إذا تقدم منك سائل يطلب إحسانا امنحه ما تيسر فيثقوا في كلامي، وبهذا تستثمر علـى أرض الواقـع سعة خيالك وقدرتك على أداء الأدوار ١".

ولما أصبح الصباح أعطاني إبراهيم كيسا فيه ألف دينار وألبسني ملابس كبار التجار وأركبني بغلة وأعطاني خادما، وقال لي: "لا تذكر إلا أنك تاجر ابن تاجر من كبـار أثريـاء مصر!".



فأضفت ضاحكا: "بل كنت لا أتناول طعامي إلا على مائدة السلطان!".

وصلت سوق التجار فلم ينتبه أحد إلى وصولي.. كانت الأرقام تشغلهم جميعـــا: كـــل واحد قد أمسك ورقة وقلما وهو يسأل نفسه: "كم سأكسب؟" أو يسأل جاره: "كم خسر فلان؟".

ورآني التاجر إبراهيم المصري وكأنني لم أكن معه طوال الليـــل فـــي بيتـــه، فقـــام واحتضنني ورحب بي: "أهلا بكم يا تاجر معروف يا صاحب الخير والمعروف".

ثم قبل رأسي، والتفت إلى بقية التجار يخاطبهم بلغة الأرقام: "شـــرفنا اليـــوم التـــاجر معروف الصديق الشخصي لسلطان مصر وأكبر تجار القاهرة، ووالده وإخوته أصحاب أعظم ثروة بين التجار، فعلينا أن نخدمه لأنه لا يتأخر عن خدمة أحد..".

ولاحظت أنه ينطق هذه الكلمات الأخيرة ببطء ووضح، ليستثير فيهم أحـــلام الـــربح وحاسة الصيد. لقد توقعوا أن يكونوا أمام فريسة لعلها أكبر غنيمة تصادفهم في حياتهم.

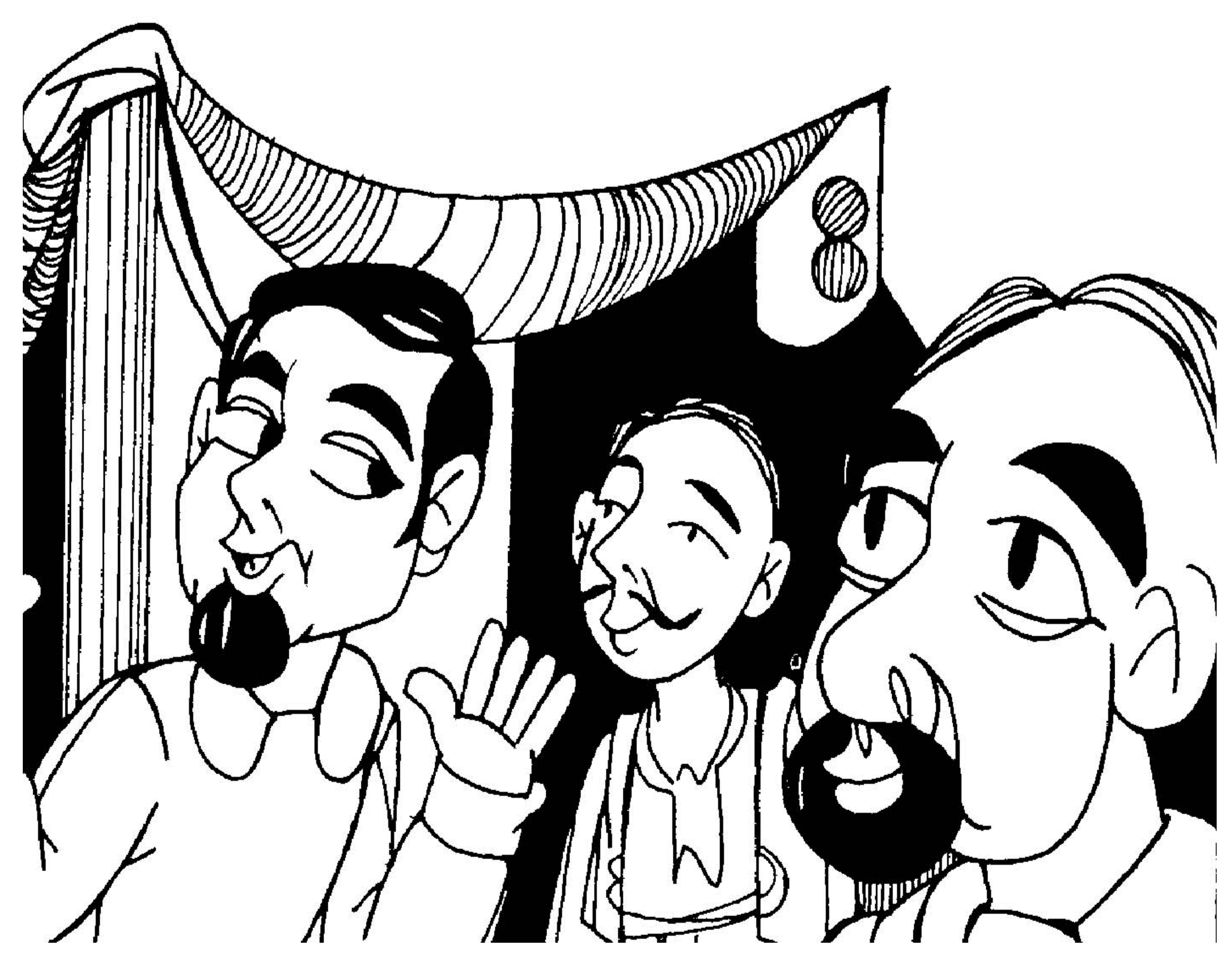
ثم أضاف: "واعلموا أنه جاء إلى مدينتنا من أجل السياحة والفرجة، فهـــو فـــي غيـــر حاجة إلى الغربة في سبيل الربح، لان عنده أموالا لا يدركها الحصر".

قلت لنفسي: "صديقي إبراهيم هذا من أقدر الممثلين، وهو صاحب خيال واسع قادر أن يجعل أي حلم كأنه حقيقة".

ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أن كل تاجر ناجح لابد أن يكون صاحب مواهب ينافس بها تلك التي ظننت أن إبراهيم يتميز وحده بها!!

وظل إبراهيم يتحدث عن "فضائلي وثرواتي" حتى جعل التجار يتبادلون بحماس أخباري فيما بينهم، كل واحد يحلم ويقول لنفسه:

"إذا قدمت اليوم هدية إلى التاجر معروف لابد أن أستردها منه أضعافا مضاعفة".



ووصلت أخباري العجيبة بسرعة إلى شهبندر التجار، فجاء مهزولا بحلم بأن يقتنص قبل غيره ثروتي التي تعاظمت إلي غير حد في خيالهم.

مال الشهبندر على أذني وهمس قائلا: "حتى إذا كنت قد جئت للسياحة والفرجة، فلابد أنك قد أحضرت بضائع تبيعها لتنفق من ثمنها أثناء رحلتك".

قلت بغير مبالاة: "أحضرت بعض البضائع في قافلتي الصغيرة التي لا تتجاوز ألــف جمل وألف بغل، وأرجو أن تصل قريبا".





عندئذ عاد إبراهيم المصري يقول: "هذه كلها مجرد عينات ونماذج مما يحفل به مخزن واحد من المخازن المتعددة التي يمتلكها السيد معروف".

هنا دخل شحاذ يطلب إحسانا.. كان يتوكأ على عصا ويتظاهر بأنه لا يرى، ويجيد هو الآخر دوره حتى إنه تعثر أكثر من مرة فأسرع القريبون منه يسندونه. وكانت هذه المساعدة أقوى دافع لإثارة الشفقة عليه، فأعطاه بعض التجار درهما أو درهمين، لكن بقيتهم حرصوا على عدم الانتقاص من "أرقامهم" فلم يمنحوه شيئا.

أما أنا، فلأنني أعرف من خبرتي ما يعانيه الفقراء من مذلة تدفعهم أحيانا إلى التظاهر بفقد البصر لاستدرار عطف أصحاب "الأرقام"، فإنه عندما اقترب الشحاذ مني ملأت قبضتي بدنانير الذهب وأعطيتها له!

وقد اضطر الشحاذ أن يتخلى قليلا عن التظاهر بالعمى الكامل لكي لا يترك أي دينار يسقط من بين كفيه، لكن التجار من حولي لم ينتبهوا إلى أن الشحاذ كاد يفضح حيلته بنفسه، لأن شيئا أهم شغل خيالهم.

لقد تعجب التجار من تصرفي، وبدلا من أن يقولوا: "هذا رجل يعرف قسوة الفقر"، قالوا لأنفسهم: "هذا تاجر من أصحاب الثروات الطائلة، ولولا ذلك ما أعطى كل هذا الذهب لشحاذ واحد!".



بعد قليل تقدمت مني في بطء امرأة عجوز شاحبة الوجه محنية الظهر، وقالـت فـي صوت واهن: "شيئا لله".

تأملتها وأنا أقول لنفسي: "هذه لا تؤدي دورا تمثيليا، لكن لماذا جـاءت تبحـث عـن صدقة عند الرجال في السوق؟! لعلها تحلم هي أيضا بأن تبني بيتا تتباهى به بين جيران فقراء مثلها".

وبالرغم من هذه الأفكار فقد ملأت قبضتي بالذهب وأعطيتها!!

ومن المؤكد أنها عندما خرجت أخبرت كل فقراء المدينة عن ذلك التاجر الذي يبعثـر الذهب، فقد أقبل طابور طويل من العمى والعرج والمرضى الذين يتقنـون تمثيـل أوارهـم، وظللت أعطي إلى أن أنفقت الألف دينار كلها التي أخذتها من إبراهيم!!



ولم أكتف بهذا، بل قلت فنسي: "يجب أن يعرف تجار هذا البلد أن تحقيق بعض أحلام الفقراء أهم كثيرا من زيادة أرقام الثروات!"، فضربت كفا على كف وأنا أقول: "حسبنا الله ونعم الوكيل!".

فأسرع شهبندر التجار يقول متسائلا:

"هل أساء أحد التصرف يا سيد معروف؟"

قلت: "اليوم اكتشفت، مع كثرة الأموال في هذه المدينة، أن معظم أهلها فقراء مساكين، من جاء منهم تحت ضغط الحاجة ومن لم يجئ تحت ضغط الخجل والاستحياء، ولو تخيلت هذا قبل حضوري لحملت معي كل ما أقدر على حمله من أموال أحسن بها إلى فقرائكم، فأحقق لهم بعض أحلامهم!".

وفي حماس فاق تقديري قال شهبندر التجار:

"خذ.. هذه ألف دينار ذهبا، تصدق بها كما تشاء إلى أن تصل قافلتك!".

فصرت أعطي الذهب لكل من يمر بي من الفقراء، وأصبح تصرف الشهبندر قدوة ومثالا لغيره من التجار، فاعتدت كلما توجهت في الأيام التالية إلى السوق أن آخذ من التجار كل ما أطلب من آلاف الدنانير أفرقها على الفقراء.

وكنت وأنا أفعل ذلك أراقب التجار حولي بطرف عيني، فأجد الأسف يعتصر قلـــوبهم على نقودهم التي تتسرب من بين يدي لتصبح ملكا للفقراء. ومع ذلك ظل الطمع يدفعهم إلـــى الاستجابة لمزيد من طلباتي بإعطائي مزيدا من أمواله من التـــي ظللـــت حريـــصا علـــى أن يشاهدوني بوضوح وأنا أوزعها على فقرائهم.

قلت لنفسي: "أنا أعذبهم، ليس لأجل أحلامهم بل بسبب جشعهم!".

وظللت على هذه الحال عشرين يوما، حتى بلغ ما أخذته من التجار ستين ألف دينـــار ذهبا!!



عندئذ، عندما وجد التجار أنفسهم في حفل عشاء كنت قد اعتذرت عنه، وجمعهم مع إبـــراهيم المصري، قالوا له كأنما هو حديث عابر بينما هم يخفون القلق الذي يكاد يفري أكبادهم علـــى مصير أموالهم.

"قافلة صديقك التاجر لم تصل، وفي كل يوم يأخذ أموالنا يعطيها الفقراء، فما نهاية هذا الأمر؟".

ولم يستطع إبراهيم إلا أن يقول متظاهرا أن الأمر عادي وبسيط: "اصبروا، فالقافلـــة لابد أن تصل".



ثم اختلى إبراهيم بي وقال وقد استولى عليه القلق بل الهلع: "من أين تسدد للناس ديونهم التي تكاثرت وأنت لا تبيع ولا تشتري؟!!".

كنت سعيدا بسعادة الفقراء وقد وجدوا بعض أحلامهم تتحقق، فلم أجد وسيلة أمنع بها إبراهيم من إلقاء مزيد من الأسئلة التي لن أجد لها إجابات تقنعه إلا أن أقول في ثقة:

"عندما تصل قافلتي سيكون معني ما أسدد به عشر مرات قدر ما وصلني من فائض أرقام أصدقائك التجار!!".

فوجئ إبراهيم بهذا الكلام يسمعه مني، فقال وهو في غاية الدهشة كأنما يخاطب شخصا فقد عقله:

"وهل لك أية قافلة؟! إنني أنا الذي علمتك هذا الكلام لتقوله للناس، والآن تأتي لترردده على مسامعي؟!!".

عدت أقول في تأكيد وثقة، فقد عشت كثيرا أحلام الثراء:

"أنا لست فقيرا، وقد أخبرتك أنني كنت أتناول طعامي على مائدة السلطان، وأنت نفسك أخبرت الناس أنني صديقه!".

وتصورت إبراهيم يهمس إلى نفسه في غيظ لكن في استسلام: "لقد سبق ومدحت "معروف" أمام التجار، وإذا ذممته الآن صرت كاذبا عندهم، بل قد يتصورون أنني متآمر معه عليهم".



لذلك عندما جاء التجار يشتكون مني ثانية وفي صراحة هذه المرة، قال لهم إبراهيم في مثل صراحتهم: "لقد أخذ مني أنا أيضا آلاف الدنانير، ولم يطلب أحد منكم نصيحتي قبل أن يعطيه كل هذه النقود. وأرى أن ترفعوا الأمر إلى ملك المدينة".

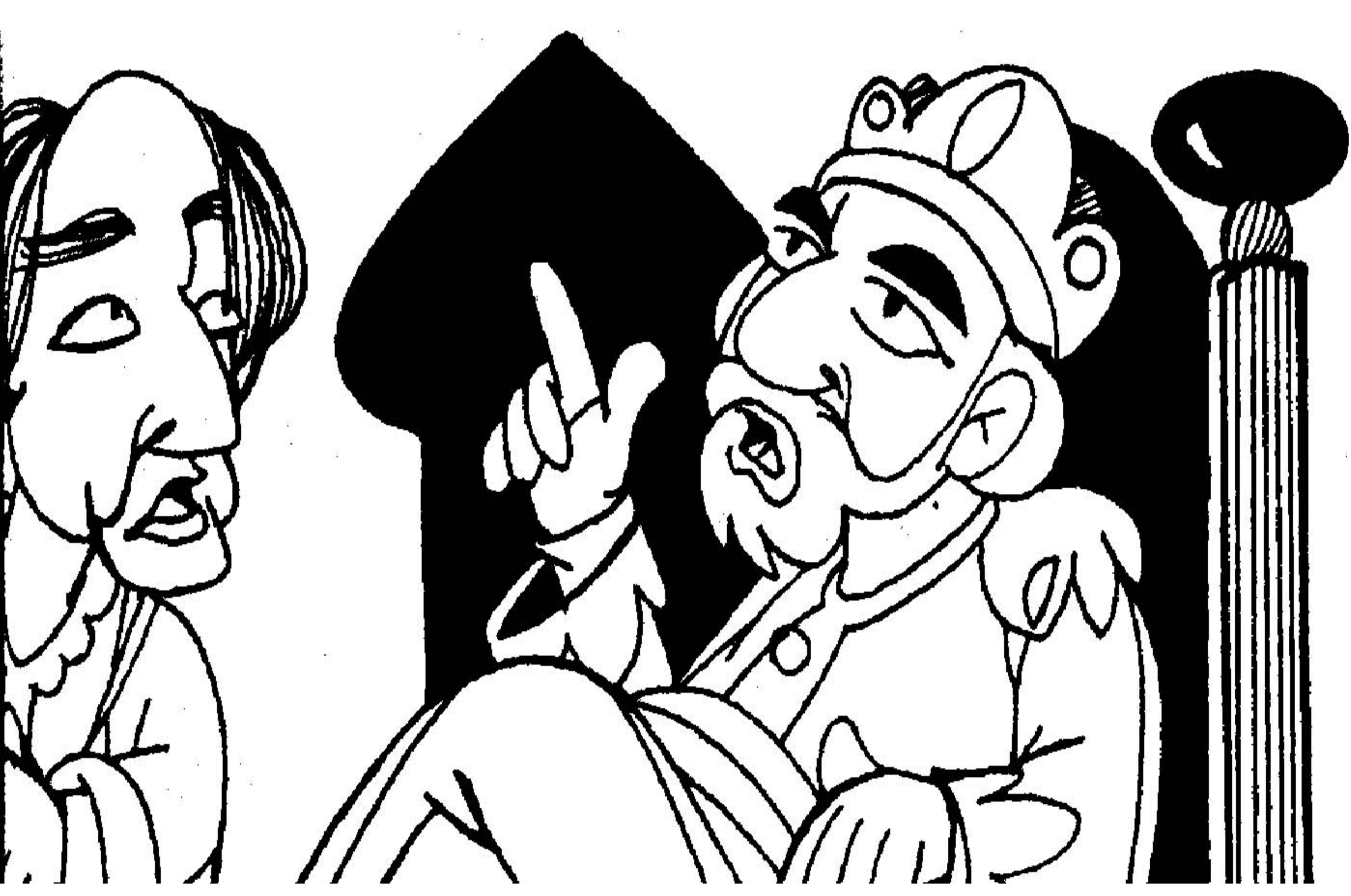
وهكذا نفض إبراهيم نفسه من أية مسئولية قد تقع عليه بسبب أحلامي وتصرفاتي.

عندئذ توجه التجار إلى الملك وقالوا له:

"يا ملك الزمان، لقد تحيرنا في أمرنا مع هذا التاجر معروف، فلو أنه كاذب نصاب لما سمحت له نفسه أن يعطى الفقراء كل هذه الآلاف، ولو أنه تاجر من الأثرياء لكانت قافلته قد وصلت".

وكان الملك، مثله مثل كل تجار بلده، طماعا شديد الطمع يحلم بمضاعفة ثروته وممتلكاته، فلما سمع عن شدة كرمي وسخائي قال لوزيره:

"لو لم يكن هذا التاجر قد اعتاد أن تجري الأموال الكثيرة بين يديه، لما هانت عليه الدنانير الذهب يبددها بسهولة على هذا النحو. وحتى إذا كان قد حدث شيء لقافلته فلن يترك ديونا عليه بغير سدادها مادام لا يهتم باكتناز النقود، وأنا أحق من هؤلاء التجار بأموال هذا الرجل. والرأي عندي



أن أتودد إليه حتى تصل قافلته، ثم أزوجه ابنتي، وأضم كل أمواله إلى مالي!".

قال الوزير الذي لم يكن أقل طمعا من الآخرين، لكن أحلامه كانت أكبـر مـن كـل أحلامهم، لأنه يطمع في كرسي العرش نفسه:

"يا ملك الزمان، هذا الرجل قد لا يكون إلا مخادعا يدبر حيلة للاستيلاء على أمـوال تجار بلدنا!".

قال الملك للوزير: "سأمتحنه لأعرف هل هو صادق أم كاذب. عندي جـوهرة غاليـة ثمينة، وسآمر بإعداد قطعة زجاج تشبهها تمام الشبه، فإذا جاء أعطيته قطة الزجاج، فإذا لـم يعرف حقيقتها فهو كاذب لا يدرك قيمة شيء، فأقتله".

وقد عرفت مضمون هذا الحديث بعدئذ، فقد أرسل لي الملك، ولما حـضرت أمامـه أجلسني إلى جانبه وأخرج من بين طيات ملابسه شيئا يلمع وقال:

"جاء إلينا تاجر أحجار كريمة وقدم لي جوهرة من الماس الثمين قال:

إن ثمنها ألف ألف دينار، فرأيت أن أستشيرك في قيمتها".

وقدم لي الملك ذلك الشيء اللامع، فتناولته وقد جف حلقي. وأثناء محاولتي إخفاء اضطرابي ضغطت بين الإبهام والسبابة على الشيء. وكانت أصابعي قد اكتسبت قوة كبيرة وصلابة بالغة نتيجة عملي بالخيوط الغليظة مع الجلد القاسي أثناء إصلاح الأحذية، فانكسر بين أصابعي ما كدت أمسك به. وبسرعة قلت لنفسي: "سمعت أن ألماس أصلب مادة في الدنيا، فكيف ينكسر هكذا؟!".

وبلهجة متعالية تضعني فوق مرتبة الملك، وتأكيدا لتصوره أنني أكثر منه معرفة وثراء، قلت: "كيف تكون ملكا وتتصور أن هذه جوهرة يا مولاي؟! هذه قطعة زجاج لا تساوي شيئا".

ثم تذكرت ما أراه في أحلامي، فأضفت: "لكن لكم العذر، فأنتم فقراء ليست عندكم جواهر ذات قيمة!!".

قال الملك في لهجة أحسست فيها بالتحدي: "وهل عندك أنت جواهر لها قيمة؟".

قلت ضاحكا لأخفف ما أثارته عباراتي من توتر: "كثيرة يا مولاي!".



فغلب الطمع على الملك وقال متظاهرا بأنه يمازحني:

"وهل تعطيني ما أطلبه منك؟!".

قلت في تأكيد وبغير تردد لأزيد من أطماعه:

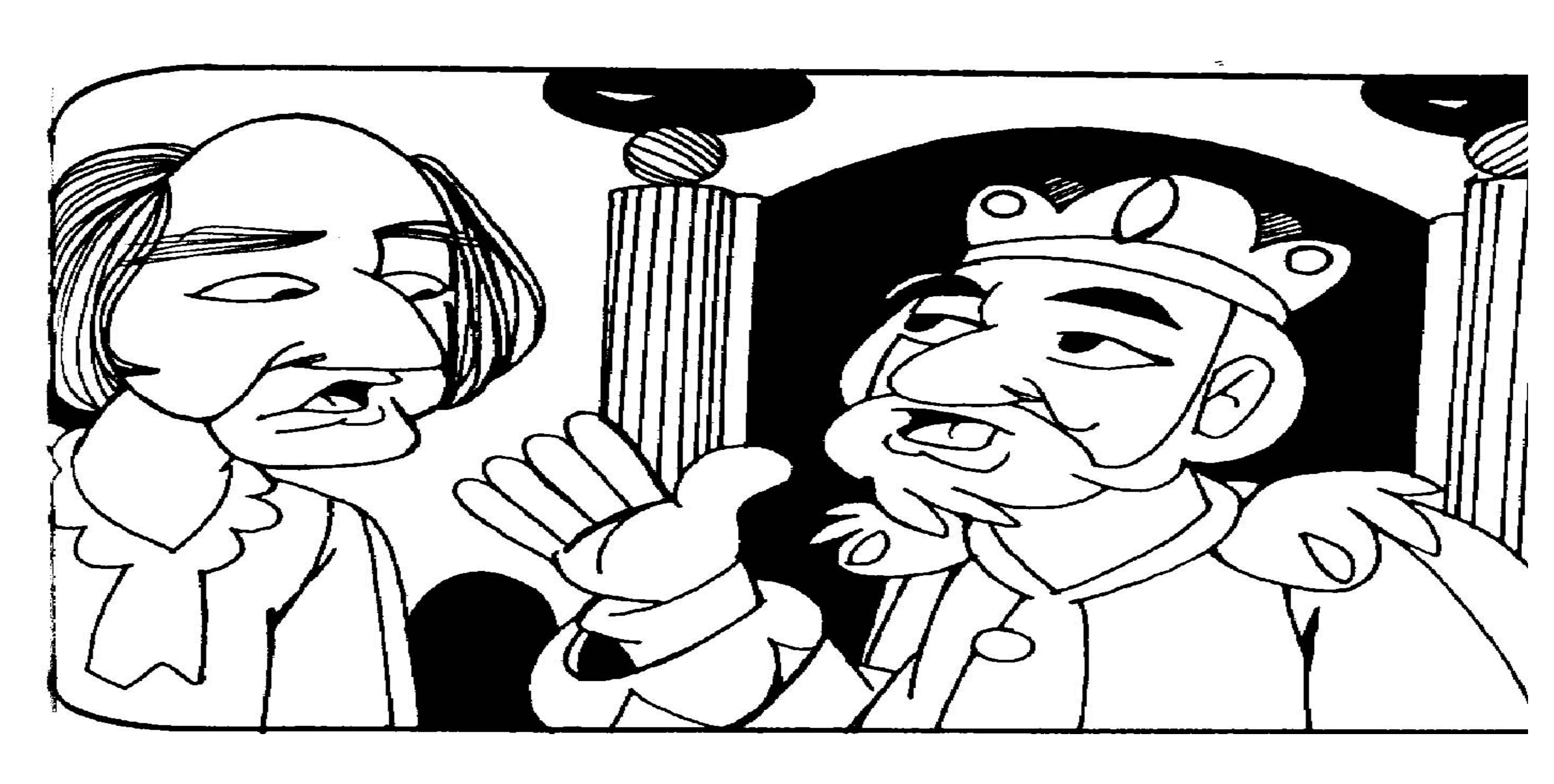
"عندما تصل قافلتي أعطيك كل ما تطلب يا مولاي، ومن غير ثمن!".

ظهر الفرح على الملك وكأنه طفل صغير تحقق أمله في امتلاك لعبة شغلت خياله، وأسرع يستدعي التجار ليقول لهم:

"اصبروا على السيد معروف، ثم تعالوا خذوا أموالكم مني أنا إذا لم تستردوها منه هو".

عندئذ لم يجد التجار إلا أن ينتظروا مرغمين.

ثم قال الملك لوزيره: "اجلس مع معروف وتلطف معه في الكلام، واذكـر لـه أنني أبحث عن زوج لابنتي، لأنه إذا تزوجها سيصبح في إمكاني أن أضع يدي على كل ما لديه من مال وثروة".



قال الوزير: "يا ملك الزمان.. إن حال هذا الرجل لا يعجبني، وأظن أنه مخادع كذاب، وأخشى أن تفقد ابنتك ولا تكسب شيئا!".

وكان قد سبق للوزير أن طلب من الملك أن يُزوجه ابنته، لكن الأميرة رفضت لأنــه كان رجلا قاسيا بخيلا، لذلك قال الملك لوزيره:

"بل أنت لا تريد لي الخير أيها الوزير لأن ابنتي سبق أن رفضتك زوجا لها. وكيــف يكون معروف رجلا مخادعا وقد عرف بسهولة حقيقة قطعة الزجاج؟! أنا واثق أنه متى تزوج ابنتي ستجد طريقا لنسيطر عليه، وسأقنعها أن ترضى به زوجا".

قال الوزير:

"إذا كانت قد رفضتني وهي تعرف مدى سلطاني وحقيقة ثروتــي، فــلا أشــك أنهــا سترفض هذا الغريب الذي لا نعرف عنه شيئا!".

قال الملك:

"المدينة كلها تعرف أنه لا يهتم بالدنانير ولا بالذهب، وهذا دليل مؤكد على أنه اعتــاد كثرة الإنفاق والبذخ، فهل تريد أن نعرف عن زوج لابنتي أكثر من هذا؟ إنك تحاول حرمــان ابنتي بل وحرماني أنا مليكك من كل هذا الخير!!".

عندئذ سكت الوزير وقد خاف من غضب الملك.

ونقل لي الوزير أن الملك لن يمانع في زواجي من ابنته، وإن كان قد حاول تنبيهي إلى أن الزواج من بنات الملوك مغامرة ليس من السهل أن يعود منها الإنسان سالما، فاللعب مع الملوك حتى في الأحلام هو لعب بالنار شديد الخطر، بل هو مقامرة بالحياة نفسها!

كذلك قلت لنفسي:

"ومن أدراني؟! فقد تكون الأميرة ابنة الملك أسوأ خلقا من زوجتي الصياحة.. قد تكون مغرورة متعالية أو جاهلة سليطة، أو حتى عاقلة حكيمة وعلى خلق لكن لا رغبة لديها في الزواج مني!!".

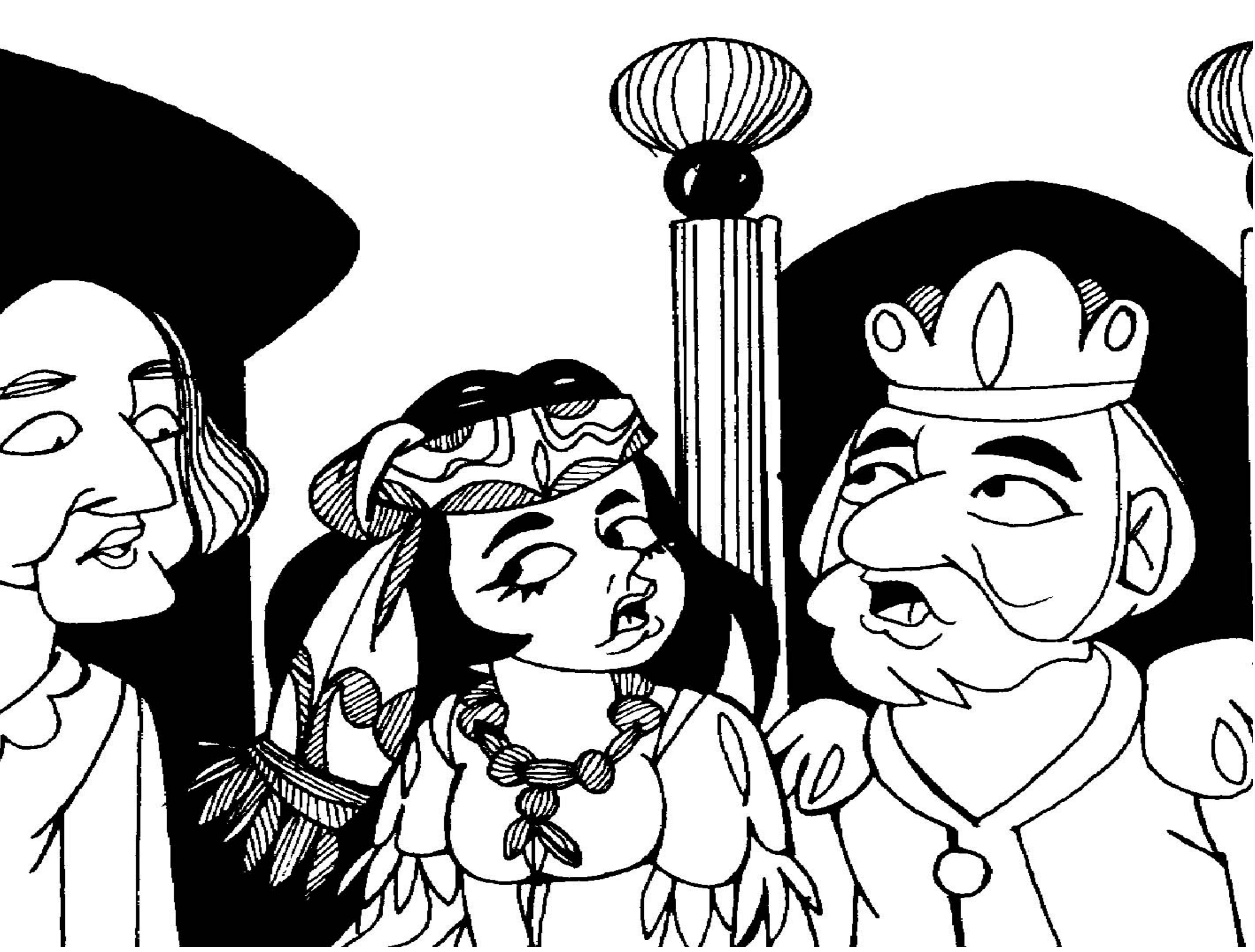
لكنني عندما ازددت معرفة بحقيقة شخصية ذلك الوزير، رجحت أنها عاقلة حكيمة لأنها رفضت بإرادة حازمة أن تتزوج منه!!

قلت للوزير في محاولة لتأجيل مشروعات الملك قدر استطاعتي، أو لأزيد الملك إصرارا على التمسك بمشروع زواجي من ابنته:

"لكن مهر بنات الملوك كبير، ولابد أن نصبر حتى تصل قافلتي فأدفع لها مهرا لا يقل عن خمسة آلاف كيس من الذهب!!.

وقد قصدت أن أستخدم الأرقام التي يحترمها تجار ذلك البلد أكثر من احترامهم لأي شيء آخر في الدنيا!

ثم استعنت بمواقف من حكاياتي وأحلامي غير متنبه إلى أنني بما أقول أرتفع بأطماع الملك في أن يستولي على ثروتي المزعومة، وأضع أطنان من الحواجز حول مدى قدرته على أن يكتشف حقيقتي.. قلت: "كما أحتاج إلى آلاف أخرى لتوزيعها على الحاشية والوصيفات والخدم والفقراء بمناسبة الزفاف!".



وقد أسرع الوزير ــ سعيدا ــ ينقل إلى الملك اعتراضي على سرعة الزواج، لكنــه فــوجئ بالملك يتهلل وقد استخفه المرح ويقول:

"انظر.. كيف تقول عنه مخادع وكذاب وها أنت قد سمعته بنفسك يرفض الزواج مــن ابنتي إلا عندما تصل قافلته؟! هل تريد دليلا أقوى من هذا على أنه ليس علينا إلا انتظارها؟!".

وفي عناد عاد الوزير يقول، ولعله الوحيد الذي كان على صواب إذا تجاوزنــا عــن حقيقة أطماعه ونواياه: "بل أنا ما زلت مصرا على كل شكوكي فيه!".

هنا صاح فيه الملك وقد نفد صبره: "إذا لم تتوقف عن هذه الظنون قطعت لسانك!".

***

وبدلا من أن يقتنع الملك بأسبابي لتأجيل الزواج، استدعاني وقال لي:

"عندك خزائني.. أنفق منها على كل ما تحتاج إليــه للفقــراء والوصــيفات والخــدم والجواري، ولا تنس الحاشية والمستشارين. وعندما تصل قافلتك فلن يكــون بينــي وبينــك حساب".



ولاشك أن الملك لم يحسب حساب فقراء شعبه وهم الغالبية الكبرى منه، الذين سيصبحون بعد هذا التفويض بإنفاق أموال الدولة على شئون رعايا الدولة، أكثر تأييدا لي واشد رفضا لكل "أكاذيب" و"شكوك" أمثال الوزير ضدي وحولي!!

وتأكيدا لهذا التفويض أسرع الملك يستدعي قاضي القضاة، يأمره بعقد قراني على الأميرة.

كنت أستطيع التظاهر بمرض مفاجئ كوسيلة للتأجيل، أو أطلب التعرف على رأي الأميرة قبل الإقدام على تلك الخطوة.

لكنني لم أتظاهر بمرض ولا طلبت أخذ رأي الأميرة، وتمت كتابة عقد القران.

ذلك أنني كنت قد استطعت ــ سرا ــ أن أعرف الكثير عن طريق الوصيفات، بل استطعت أن أرى الأميرة، فارتحت إليها.

كما هيأت الأمور لكي تراني، فتأكد ــ لديها ــ سلامة الصورة التي رسمها شعبها لي.

لذلك كثيرا ما سألت نفسي:

"هل حلم الإنسان الدائم بتحقيق السعادة لكل إنسان، يمكن أن يرسم على الملامح والسلوك ما يجعل أميرة عاقلة حازمة حكيمة، تقبل الزواج من رجل تجهل عنه الكثير، بعد أن رفضت الزواج من وزير تعرف عنه الكثير!".



وأقيمت الأفراح والليالي الملاح، ومدت الموائد والولائم للتجار والأغنياء، لكنني أصررت أن تكون لكل أفراد الشعب.

وجلست على مقعد بجوار عرش الملك، أتفرج على العازفين والراقصين والمغنين ولاعبي الأراجوز وخيال الظل والحواة.

كنت أعرف أنهم جميعا يمتلكون الفن ويمتعون الجماهير ويبدعون ويبتكرون، لكنهم لا يمتلكون المال ولا السلطان، وأن انشغال المملكة بالمال والأرقام صرفها عن الاهتمام بأهل الفنون والثقافات بل عن أهل العلم والعلماء. لذلك استخدمت جيدا التفويض الذي أعطاه لي الملك، فكنت أنادي خازن أموال الملك وأقول له:

"هات الذهب والفضة".



ثم أبحث عن اصحاب الفنون أعطي كل واحد منهم قبضة من الدنانير، وأسعد عندما أرى وجوههم تفيض بالشكر لأنهم وجدوا أخيرا من يهتم بالفن ويقدر أهل الثقافة، فهم القادرون على إثارة أروع الأحلام في عقول ونفوس أصحاب الحرف والصناعات لكي ينتجوا أكثر ويتفوقوا أفضل.

وكنت أراقب وجه الوزير وحركاته، فأدرك أن قلبه يكاد ينفجر من الغيظ وهو صامت لا يجرؤ أن يقول كلمة!

أما صديقي التاجر إبراهيم فكان يتعجب مما يسميه "بعثرتي" لكل تلك الأموال، ويقول لي كلما التقينا وليس معنا غريب:

"ألم يكفك ما أضعت من مال التجار حتى تضيع الآن مال الملك؟!.

فأقول له: "وهل يضيع الملك إذا عاد إلى أصحابه من أفراد الشعب؟!".

ثم أضيف ساخرا: "لكن اطمئن.. عندما تصل قافلتي أعوض الملك أضعاف ما أخذت منه!!".

واستمرت الأفراح والليالي الملاح أربعين يوما كاملة، تم بعدها الزفاف.



وقبل أن أنفرد بالأميرة سألت نفسي: "هل أنشغل بها عن أهدافي التي رسمتها في أحلامي؟".

وبسرعة أجبت نفسي: "ولماذا لا أشرك الأميرة في أحلامي؟".

لذلك ما أن انفردت بها حتى ضربت كفا على كف وقلت: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!".

سألتني الأميرة: "لا تسمح لشيء أن يفسد سعادتنا.. مالك؟!".

قلت لها آسفا: "كيف عمل والدك معي هذه العملة الفظيعة؟".

دهشت الأميرة وانتابها القلق وهي تسأل في حيرة: "لم يعمل معك أبي إلا كل خير!".

قلت: "لماذا أصر على إتمام زواجنا قبل أن تصل قافلتي، وأقل ما كنت أريد أن يكون معي لكل رب أسرة من أهل هذه المدينة صرة بها مائدة دينار تقيم بها الأسرة دكان لحرفة أو مصنعا صغيرة أو مزرعة لإنتاج الحبوب أو لتربية الدواجن والحيوانات، فيفرحوا ويقولوا في مستقبل الأيام: "السيد

معروف أعطانا مصدر رزقنا في ليلة زفافه إلى سيدتنا الأميرة ياسمين؟".

انفرجت أسارير الأميرة وطوقتني بذراعيها وهي تقول: "لا تهتم، خذ كل أموالي وما تحتاج إليه من أموال والدي، وقدم منها للناس ما تشاء إلى أن تصل قافلتك".

وفي صباح اليوم التالي للعرس ارتديت ملابس الملوك ودخلت قاعة العرش، فقام لي كل من فيها وهنئوني وباركوا لي. ثم جلست بجوار الملك وسألت: "أين أمين الخزانة؟".

فلما وقف أمامي قلت له: "هديتي لكل واحد من الحاضرين ثوب من أغلى الثياب". ثم جلست أمنح لكل واحد هديته على قدر مقامه، وبعدها التفت إلى أمين الخزانة وقلت:

"وهديتي لكل أسرة من أهل المدينة كيس به مائة دينار ذهبا".

وظللت أسابيع وشهورا وأرباب الأسر يأتون إليَّ فأمنحهم هداياهم، وإلى يميني كاتب يسجل المشروعات التي تعتزم كل أسرة القيام بها.

واستمر الأمر على هذه الحال سنة كاملة، والتجار يكتمون غيظهم خوفا من الملك.

وفي يوم نهاية السنة لم أجد أمين الخزانة أمامي كما اعتدت يوم، وعرفت السبب فيما بعد.

فقد دخل إلى الملك في غيابي وهو جالس مع الوزير وحدهما وقال:

"يا ملك الزمان.. اسمح لي أن أخبرك بشيء يكاد يطير له عقلي.. الخزانة فرغت ولم يبق بها من المال إلا ما وضعته في الأكياس التي كنت أعدها ليوزعها سيدي معروف اليوم على عائلات أهل البلاد، وبعدها لن يكون بالخزانة شيء!!".

التفت الملك إلى الوزير وقال: "لقد تأخرت قافلة زوج ابنتي ولم نسمع عنها خبرا!!".

فضحك الوزير في شماتة وقال: "ترجوا رحمة الله يا مولاي. لقد خدعنا الكذاب وأتلف أموالك وتزوج ابنتك بخبثه وخداعه".

ثم التفت إلى أمين الخزانة وقال له غاضبا: "لماذا سكت سنة كاملة وأنت ترى أموال الخزانة تتسرب بهذه السرعة شهرا بعد شهر ولا نستطيع الآن استرداد شيء؟".

قال أمين الخزانة: "كانت سيدتي الأميرة شاهدة على كل كيس تم توزيعه، بل كان مولاي ملك الزمان حاضرا يبارك توزيع مئات من الأكياس ويبدي سعادته وهو يرى علامات الرضا وضحكات الناس ودعواتهم كما لم يحدث أبدا من قبل!".

قال الوزير: "لكن التجار أصحاب الحل والربط في مدينتنا غير راضين، ولست أعرف إلى متى نظل غافلين عن هذا المخادع!".

قال الملك: "وما العمل الآن يا وزيري؟".

هنا طلب الوزير من أمين الخزانة أن يخرج، ثم قال: يا ملك الزمان.. لا يستطيع أن يعرف سر الرجل إلا زوجته، فأرسل إلى ابنتك لنسألها عن حقيقة زوجها".

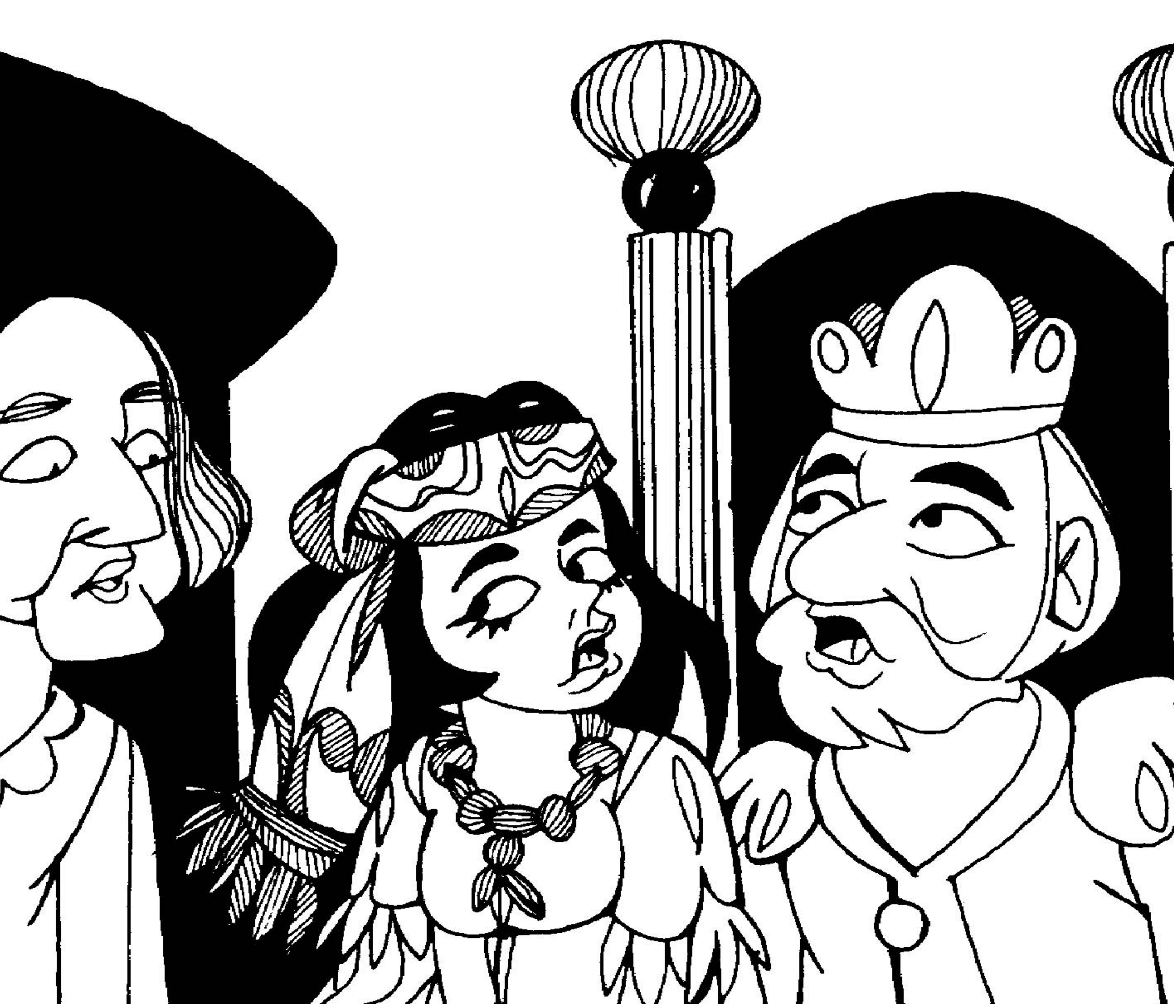
قال الملك: "إذا ثبت أنه نصاب كذاب سأقتله أسوأ قتلة!".



جلست ياسمين على مضض لتسمع الوزير يقول في لهجة خطيرة: "اليوم اكتشفنا أن زوجــك أتلف كل مال أبيك..".

وفي نفاد صبر قاطعته: "زوجي لم يأخذ دينارا واحدا لنفسه!".

قال الوزير بغير أن يخفف من حدة لهجته: "لا يغير هذا من الأمــر شــيئا.. خزانــة والدك أصبحت خاوية!".



وكم كانت دهشة الملك ووزيره عندما قالت ياسمين في حدة:

"خزانة والدي التي تتحدث عنها اسمها "بيت مال الشعب"، وما بها جمعناه من النـــاس لننفقه عليهم، وقد تم إنفاقه عليهم فعلا!".

قال الوزير محتجا: "أنت تنسين أنك أنت ووالدك ملك الزمان تخسران كل شيء!".

قالت ياسمين في تحد واضح: "بل ربحنا حب الناس!".

صاح الوزير: "تقصدين أن الرابح هو زوجك المخادع!".

صاحت ياسمين: "لا تتهم زورا زوج ابنة الملك!".

وقف الوزير ليقول في انفعال: "سنة كاملة لا تأتي له قافلة ولا نسمع عنهـــا خبـــرا.. التجار أقرضوه عشرات الآلاف ولم يسدد لهم دينارا واحدا.. والآن خزانة المدينـــة فارغـــة!! ماذا تسمين هذا؟! أمانة؟! رد الحقوق إلى أصحابها؟! وفاء بالوعود؟!!".

قالت ياسمين وقد فرغ صبرها: "لماذا استدعيتموني؟".

قال والدها الملك: "نريد أن نطمئن!".

قالت ساخرة: "تطمئنون على ماذا؟!".

أسرع الوزير يقول: "على حقيقته!! لقد تزوجك بغير مهر، وقدم كثيرا من الوعود لـــم يف بشيء منها!".

وفي عصبية قذفته الأميرة بثورتها قائلة: "بل وعد الآلاف من أفراد الشعب بالرخـــاء وأوفى لهم بوعوده.. فتح لهم أبواب الرزق وبذل جهده لكي لا يسلب أحد ناتج عملهم.. انـــزل إلى الشوارع والأسواق، إلى المخازن والمزارع.. انظر كيف أصبحت ملابس الناس جديـــدة زاهية.. تأمل ضحكات الأطفال تجلجل وقد امتلأت بطونهم بعد جوع واطمأنت نفوسهم بعد أن كانوا يخشون الغد كأنه وحش لئيم! لقد تغير حال الناس كثيرا إلى الأفضل! تقول التجار؟! هل راقبت حركة البيع والشراء؟! لقد تضاعفت عشر مرات في هذه السنة التي تقول إن زوجي لم يف خلالها بشيء من وعوده!".

قال الوزير في تحد: "زوجك تهرب من أن يسدد للتجار المبالغ الطائلة التي اقترضها منهم، لذلك فهم يتجمعون للتآمر على والدك ملك الزمان.. يتهمونه بأنه يحمي من نهب أموالهم! كيف تريدين أن نقف أمام موجة غضبهم العارمة؟!".

وفي عصبية عادت الأميرة تسأل: "وما دوري أنا في كل هذا؟! ما شأني به؟!".

قال والدها الملك: "لا شيء.. فقط أن تعرفي من زوجك حقيقة أمره لكي نتدبر أمورنا وننقذه وننقذ أنفسنا قبل أن يغرقنا الطوفان!".

سألت الأميرة: "وماذا تريدون أن أعرف من زوجي؟".

سيطر الوزير على نفسه وعاد إلى لهجته الناعمة وهو يقول: "هل هو تاجر حقا؟! وهل له قافلة في طريقها إلينا؟! ولماذا تأخرت سنة كاملة؟!".



قالت ياسمين: "كن على ثقة أنه أكبر التجار وستصل قافلته قريبا!"

قال الوزير: "لا وقت للانتظار.. سيضطر ملك الزمان لإرضاء التجار، إلى وضعه في السجن حتى تصل قافلته!".

هنا قفزت ياسمين واقفة وقد اشتعل غضبها واندفع الدم إلى وجنتيها وهي تقول للوزير في اتهام:

"هل وصل بك التآمر على زوجي إلى حد إثارة غضب والدي الملك عليه؟!".

قال الوزير: "ليس أمام والدك طريق آخر وإلا اكتسحتنا العاصفة!".

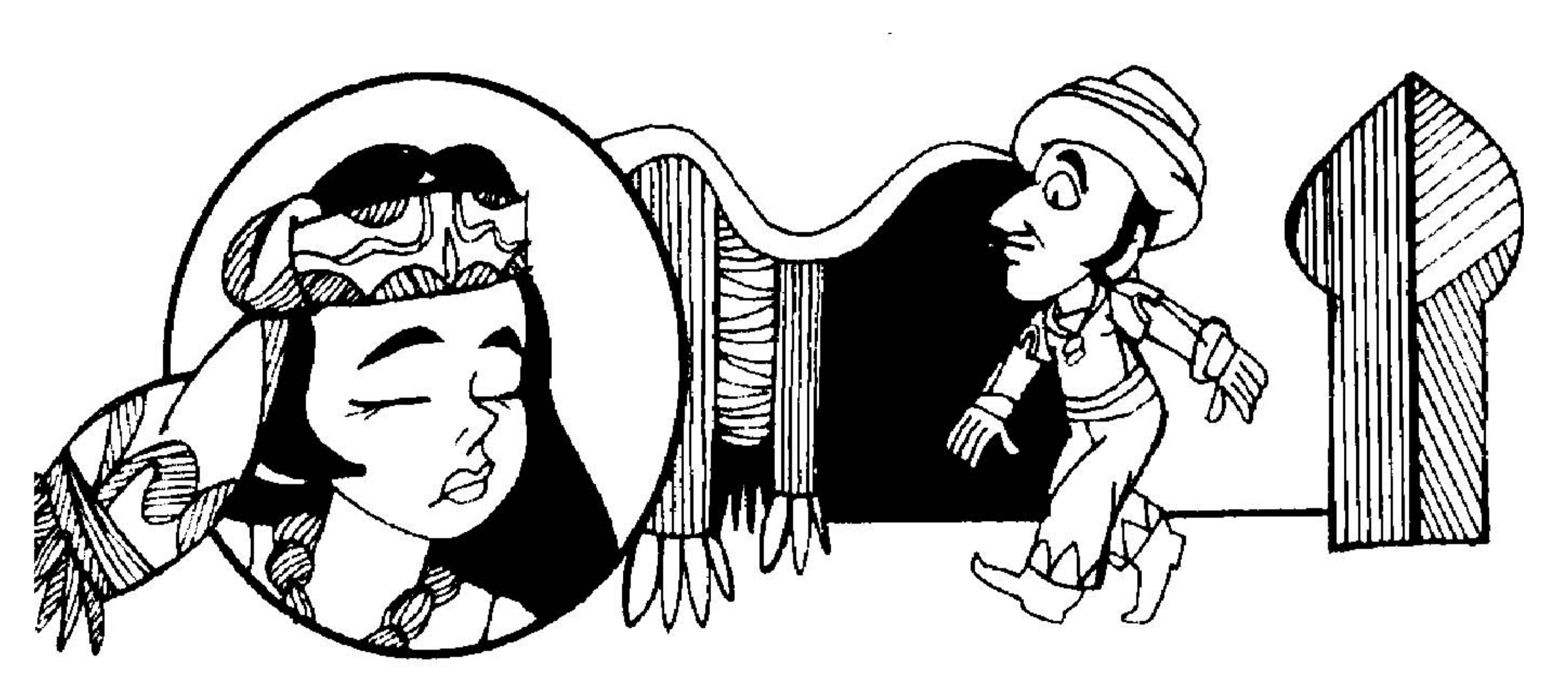
قالت ياسمين: "سجن زوجي معناه الفضيحة لنا جميعا!".

وفي سرعة أجاب الوزير: "بل فضيحة لك لنتفادى فضيحة أكبر لملك الزمان! التجار لن ينتظروا أكثر من هذا!".

قالت ياسمين وهي تستدير لتخرج في قمة غضبها: "الليلة أعرف منه الحقيقة".

أما أنا، فكنت في قاعة العرش أتابع أخبار الناس، يستشيرني فيهـا شـيوخ الحـرف والصناعات وكبار عائلات القرى والأرياف، عندما عادت ياسمين إلى القصر الذي نعيش فيه وهي تحاول السيطرة على ثورة غضبها وسخطها.

وعندما انتهيت من أعمالي التي كانت تتكاثر يوما بعد يوم بالرغم مـن تزايـد عـدد المساعدين الذين اخترتهم للاستعانة بهم في حل ما يواجه الناس من مـشكلات، عـدت إلـى ياسمين، فلاحظت ــ فورا ــ علامات الضيق على وجهها. وعندما سألتها عن السبب لم تذكر شيئا عن مقابلتها للوزير عند والدها، بل قالت مباشرة:



"التجار يتجمعون ليدبروا مؤامرة ضد والدي الملك تطيح به، بـسبب ديـونهم التـي اقترضتها منهم ولم تردها!".

قلت: "عليهم انتظار وصول قافلتي!".

قالت في لهجة حاولت أن تكون هادئة: "حدثتني نفسي دائما بأنه ليست لك قافلـــة ولا أموال، لكنني لم أشأ أن أواجهك بهواجسي لأنني كنت سعيدة بمشاركتك في أحلامك، فأحببتك وأصبحت حريصة عليك أكثر من نفسي، ولم يعد يهمني في كثير أو قليل وصول أية قافلـــة. لكن والدي الملك قرر بتحريض من الوزير، أن يضعك في السجن لإرضاء التجار مادمت لم تسدد لهم ما أخذته منهم!".

قلت: "إن أبناء الشعب كلهم معي!".

قالت: "إذا قاوم الشعب محاولة إلقاء القبض عليك، فإنهم يقاومون الملك لأنـــه الـــذي يصدر قرار سجنك وهو الذي ينفذه، وسينتهز التجار الفرصة ليجيئوا بملك جديد قد لا يكتفـــي بوضعك في السجن، بل لن يتردد في قتلك وقتلي معك!".

قلت وقد انتابني لأول مرة قلق حقيقي: "وما العمل؟".

قالت في ثبات: "نتظاهر بأن القافلة وصلت!".

قلت في دهشة بالغة: "كيف وقد أصبحت تعرفين أنه ليست هناك أية قافلة؟!".

قالت: "قم الآن وارتد ملابس عمال الملك الذين يرسلهم برسائله. خذ معك خمسين ألف دينار من أموالي، واركب جوادا يسافر بك إلى بلد لا يصل إليه نفوذ والدي، واعمل هناك بالتجارة إلى أن تربح أموالا كثيرة، وأخبرني سرا بمكانك إلى أن أدبر الأمر وأرسل إليك لتعود".

قلت لأكسب وقتا أفكر فيه: "وكيف أترك أبناء مدينتنا بعد سنة واحدة من محاولتنا تحقيق أحلامهم بحياة أفضل من خلال مشروعاتهم وأنشطتهم الجديدة؟! بل كيف أطيق فراقك والابتعاد عنك؟!".

قالت في حزم: "هذا هو الطريق الوحيد المتاح أمامنا الآن لنتفادى كارثة ستحل بنا يتسبب فيها التجار بالتآمر مع الوزير".

وأضافت: "والشعب ليس طفلا يعجز إذا اختفى عنه والده، بل حتى الأطفال يعرفون كيف يشقون طريقهم بعيدا عن آبائهم. وتذكر أنني شاركتك كل خطوة، والأم تستطيع أن تجمع بين دورها ودور الأب إذا اضطرتها الأحداث إلى ذلك!".

سكت لحظات أقلب الأمر على وجوهه المختلفة.. كنت أقول لنفسي:

"والدها الملك يهدد بإلقائي في السجن وربما قتلني بتحريض من الــوزير، لإرضــاء التجار الذين لا يغضبون قدر غضبهم عندما تنقص أرقامهم. وإذا هب الشعب لمناصرتي فقــد يتغير الملك لكن نفوذ التجار لن يتغير، وهكذا تدفن مشروعاتي وتتلاشى أحلامي ولا ينتــصر في النهاية إلا جشع التجار".

لذلك قلت لزوجتي: "سأعمل بنصيحتك".

وسرعان ما تخفيت في ملابس رسول من رُسُل الملك، وامتطيت جوادا، وحملت مــا استطعت من أموال، وغادرت المدينة في آخر الليل بغير أن يراني أحد إلا زوجتي ياســمين، التي ودعتني ودموعها في عينيها.



وفي الصباح استدعى الملك ابنته وسألها: "ما أخبار زوجك؟".

تماسكت وقالت في سخط: "سود الله وجه وزيرك، فقد كان يريد أن يسود وجهي أمام زوجي!".

قال والدها: "لماذا تتحاملين على وزيري؟ وكيف حدث منه هذا؟!".

قالت: "كنت أنتظر زوجي لأفاتحه في أمر قافلته عندما دخل على قبل أن أفتح فمي أمامه بكلمة واحدة. كانت بيده رسالة وصلته مع عشرة من حراس قافلته تخبره بما حدث للقافلة في الطريق بعد أن سبقها وجاء إلى مدينتنا.

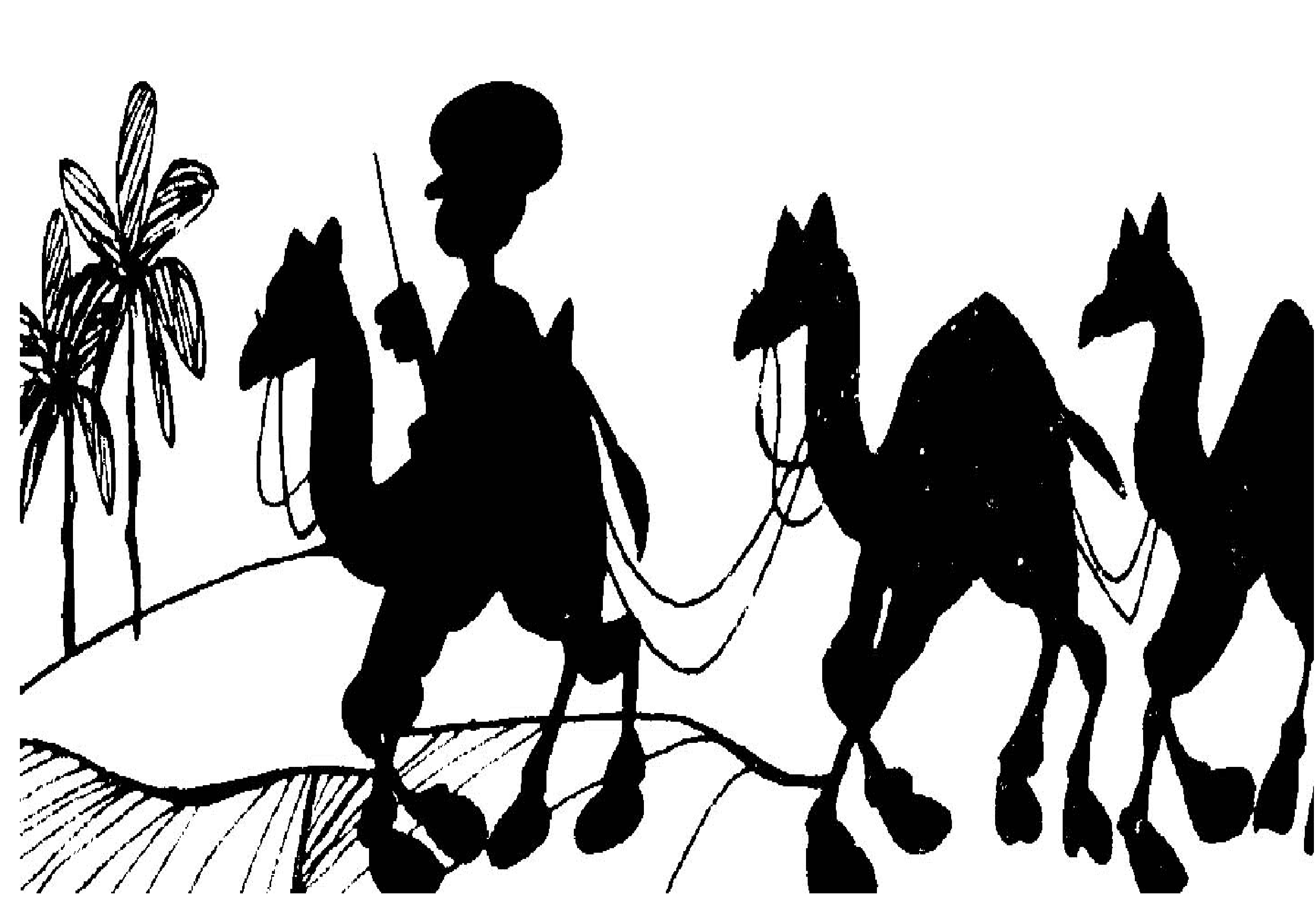


لقد هاجمتها عصابة كبيرة من قطاع الطرق، وظلت القافلة في حرب مع اللصوص شهرين كاملين، ولم تنته المعارك إلا بعد القضاء على أكثر من نصف أفراد العصابة المعتدية، وبعد أن سقط قتيلا عدد كبير من حراس القافلة ودوابها، وبعد أن نجح بعض قطاع الطرق في الاستيلاء على مائتي جمل بما تحمل من بضائع وأموال، فاضطر قادة القافلة إلى العودة بها إلى مصر للاستعانة بمزيد من الحراس وتعويض ما نقص من بضائع.

وقد استغرقت هذه الأحداث الدامية المثيرة كل هذه الشهور، والقافلة الآن في الطريق إلى هنا".

وأضافت ياسمين: "وقد نظرت من نافذة

القصر فرأت الحراس العشرة الذين احضروا الرسالة. كان كل واحد منهم يرتدي ملابس تساوي ألف دينار، وليس في بلدنا حارس يشبه واحدا منهم في فخامة هيئتهم وبذخ زينتهم وروعة سلاحهم!".



وفي الحال ركب معروف حصانه وأسرع لملاقاة القافلة واستعجالها، بعد أن نزل ضاحكا لـــم يصبه الغم على ما ضاع، بل قال لرجاله العشرة: كان عليكم الحضور بما بقي من القافلة بغير حاجة للعودة إلى مصر، فما ضاع ليس بشيء بالنسبة إلي وكأنني تصدقت به".

وختمت ياسمين حديثها لوالدها قائلة: "والحمد لله الذي منعني من أن أذكر له شيئا من الكلام الذي طلبت مني أن أقوله له، وإلا استصغر شأني لشكوكي فيه، لكن الغيب كلـــه مـــن وزيرك الذي لا يتوقف حديثه عن زوجي بما لا يليق!".

قال الملك لابنته: "كنت أعرف دائما أن مال زوجك كثير ولا تهمه خسارة قافلة كاملة، فمنذ وصل بلادنا وهو يتصدق على الفقراء ويقيم المشروعات ويفتح أبواب الـــرزق، وجعـــل مدينتنا تبيع بآلاف الدنانير إلى البلاد الأخرى وتشتري منها، وهذا شيء لم يحدث من قبـــل.. ونرجو أن تصل قافلته عن قريب وأن يحصل لنا منه خير كثير".

أما أنا فقد ركبت جوادي وأسرعت أغادر المدينة لا أدري إلى أي البلاد أتجه.

كنت أقاسي من ألم فراق زوجتي ومن الخوف خشية انهيار أحلامي التـــي جعلتنـــي سعيدا بسعادة الناس بي.

ظللت سائرا إلى أن اشتد بي الجوع عند الظهر وقد ارتفعت الشمس وأصبحت فـــوق رأسي. كنت في طريق صحراوي، لكنني رأيت قرية تحيط بها حقول واسعة، على حفافتها أحد الفلاحين يحرث أرضه بمحراث يجره ثوران، فاقتربت منه وألقيت عليه السلام، فـــرد علـــى سلامي وهو يتأمل ملابسي ويقول: "مرحبا بك يا سيدي.. هل أنت رسول من عند السلطان؟".

فلما أجبت بالإيجاب قال مرحبا: "تفضل انزل عندي لأقوم بواجب الضيافة نحوك".

قلت له: "لست أرى عندك شيئا يمكن أن تتناوله أنت، فلماذا أثقل عليـــك بـــضيافتي؟! بلدتكم قريبة أستطيع الذهاب إليها حيث أجد طعاما لي ولحصاني".

قال الرجل في حماس: "بلدتنا قرية صغيرة ليس فيها



سوق ولا بيع ولا شراء.. تنازلك وقبولك ضيافتي شرف كبير لي.. انزل وانتظرني هنا حتى أذهب وأحضر ما تحتاج إليه أنت وحصانك".

فنزلت عند حافة الحقل وتركت الحصان يستريح، بينما أسرع الفلاح إلى البلدة وأنا أقول لنفسي: "ها أنا قد شغلت الرجل المسكين عن عمله، فلماذا لا أقوم وأكمل حراثة أرضه إلى أن يعود؟".

قمت فتحركت الثيران تجر المحراث. ولعدم خبرتي، خرجت الثيران عن أرض الحقل إلى الطريق الذي يجاورها.

وعندما حاولت أن أعيد المحراث إلى أرض الفلاح، لم يتزحزح من مكانه، واكتشفت أن سن سلاح المحراث قد اشتبك في حلقة من حديد انكشفت عنها رمال الطريق الصحراوي!!

أزحت مزيدا من الرمال حول الحلقة، فوجدتها مثبتة وسط حجر مستدير يكفي لتغطية فوهة بئر.

أمسكت الحلقة وجذبتها، فتقلقل الحجر. وبصعوبة رفعته من مكانه، فظهرت تحته درجات سلم تنزل إلى باطن الأرض.

أثار ذلك الاكتشاف أقصى درجات حب الاستطلاع عندي.

فنزلت في حرص تلك الدرجات، فوجدت نفسي داخل قاعة متسعة بها أربع حجرات.

كنت نازلا من نور النهار المبهر فلم تميز عيناي شيئا. لكن ما إن اعتدت على الظلمة حتى صحت من الدهشة والمفاجأة، بل لم أصدق ما تراه عيناي!!

كانت الغرفة الأولى ملآنة من أرضها إلى سقفها بقطع الذهب!

والثانية مشحونة حتى حافتها باللؤلؤ والزمرد!!

والثالثة مكدسة بالماس الثمين!!!

والرابعة بها من كل أصناف الجواهر النادرة!!!!

شعرت بساقي لا تتحملانني، فجلست على الأرض كما فعلت ذات يوم قبل عام مضى في خرائب قصور قديمة أثناء تلك الليلة غزيرة الأمطار، بل رحت أقول كما قلت تلك الليلة:

"هل يمكن أن يأتي من يحملني ومعي كل هذه الكنوز العجيبة الطائلة إلى المدينة التي بها زوجتي الأمير ياسمين؟".

وما إن انتهيت من تلك العبارة التي لم تكن تزيد على أمنية أعرف أنها غير قابلة للتحقيق، حتى انشق حائط القاعة،



وخرج منه العملاق نفسه الضخم كالشجرة الطويلة كالنخلة، وقال لي:

"ها أنت تقلقني ثانية يا رجل! جئت بك إلى مدينة قريبة من هنا، وأثناء عودتي إلى مصر عثرت على هذا المخبأ الحصين البعيد عن أمثالك من المقلقين، ففضلت أن أسكنه بدلا من تلك الخرائب القديمة التي لم تحمني من إقلاقك إياي". ثم أضاف: "ولكن ها أنت ورائي ورائي، تجدني حتى في مسكني هذا المختفي تحت الأرض!!".

قلت وأنا أخشى أن يعاقبني هذه المرة على إقلاقي راحته للمرة الثانية:

"لم أكن أقصد أن أستدعيك، ولا أريد تكليفك بشيء!".

تنهد العملاق فكأنه الريح العاصفة تهب وقال: "تابعت تصرفاتك فأعجبني إصرارك على تحقيق أحلامك.. الأحلام تجعل منكم أيها البشر أكثر قدرة من أي جني أو عفريت.. والآن.. هيا.. أخبرني بحاجتك".

وبغير تفكير كثير قلت: "أريد من يحمل معي كل هه الكنوز إلى حيث توجد زوجتي الأميرة".

قال: "هل تريدها قافلة من الجمال؟".

وفجأة طرأت على ذهني فكرة غريبة.. قلت للعملاق.

"هل تستطيع أن تحضر لي إلى هنا كل أهل المدينة التي تعيش فيها الأميرة، ما عـدا تجارها؟! اجعلهم يحضرون معهم محصولات أرضهم ومنتجات صناعاتهم وما أبـدعوه فـي حرفهم، وأن يحمل كل واحد منهم صندوقا فارغا!".



ضحك العملاق ضحكة كالرعد ارتعدت عند سماعها أطرافي وقال:

"طلب غريب، لكنه ليس غريبا من رجل اعتاد أن يحلم. انتظرني عند أول الـــدرجات العلوية للسلم المؤدي إلى هذه القاعة".

صعدت الدرجات إلى أن أصبحت فوق سطح الأرض، وفوجئت بعد قليل بعاصفة من الرمال والتراب تقترب من بعيد. وكلما اقتربت زادت دهشتي.. كان كل أهل المدينة يتقدمون في طابور طويل ناحيتي!!

وتنفيذا لطلبي جمع العملاق الصناديق الفارغة التي حملها معهم أهل المدينة، فملأهـــا بالذهب والماس واللؤلؤ والجواهر، حتى فرغت الحجرات الأربع.

وبعد لحظات كانت القافلة على استعداد للتوجه إلى المدينة.

ناديت عملاقي وقلت له: "هل يمكن أن ترسل إلي عمي الملك تطلب منه أن يخرج مع التجار والجنود لاستقبال قافلتي عند أبواب المدينة؟!".

قبل أن أتم عبارتي كان العملاق قد اختفى، وغير هيئته، فأصبح فارسا شابا وسيما، دخل بهدوء قاعة العرش، فوجد بها الملك يقول للوزير:

"كم أخاف على زوج ابنتي!.. أخشى أن يهاجمه قطاع الطرق كما سبق أن فعلوا بقافلته.. لقد أعددت جنود جيشي لمرافقته عندما أعرف المكان الذي وصلت إليه قافلته".

وكعادته ضحك الوزير في سخرية وهو يقول:

"أقسم يا ملك الزمان أن الرجل عرف أننا تنبهنا لأكاذيبه فخاف من الفضيحة، وهرب قبل أن نلقي به في السجن!!".

في تلك اللحظة ظهر العملاق أمام الملك وقد اتخذ مظهر قائد قافلتي وهو يرتدي أغلى الثياب وأفخمها وقال:



"يا ملك الزمان.. أرسلني زوج ابنتك التاجر المشهور المعروف السيد معروف يـدعوك إلـى لقاء قافلته عند أبواب المدينة، ويرجو أن يكون بصحبتك كبار رجال المدينة، وكـل التجـار والحراس والجنود".

عندئذ التفت الملك إلى الوزير وصاح فيه شامتا: "سود الله وجهك!.. أنت لا تتوقـف عن شتم زوج ابنتي واتهامه بكل نقيصة، وها هو قد وصل مع قافلته".

وتجمدت ملامح وجه الوزير، فأطرق برأسه مهزوما لا يستطيع أن ينطق بحرف!



أما الأميرة ياسمين فقد قالت لنفسها عندما سمعت أخبار قرب وصولي مع قافلتي:

"هذا شيء عجيب! هل كان زوجي يختبر وفائي عندما وافقني على أنه لا يمتلك ثروة ولا ينتظر وصول قافلة؟!.. الحمد لله أنني وقفت بجانبه ولم أفكر إلا في سلامته".

وعندما سمع التاجر إبراهيم المصري تلك الأخبار قال:

"من أين أتته تلك القافلة وقد أتاني هاربا من زوجته التي طردته من بيته، وكان فقيرا لا يملك شيئا؟!".

ثم أجاب على نفسه عندما عاد يقول: "لعل ابنة الملك قد دبرت له حيلة لتفادي الفضيحة، والملوك لا يعجزون عن شيء! وفقه الله وحفظه من كل سوء!".

أما أنا، فبعد أن تهيأت القافلة للتحرك، رأيت الفلاح يعود ومعه وعاء وكيس.

وعندما رأى قافلتي العجيبة توقف وقال في دهشة بالغة: "لا شك أن ضيفي هو السلطان نفسه، وهذه هي قافلة السلطان!!".

ثم تجمد واقفا في مكانه لا يقدر على تحريك قدميه من شدة الانفعال!

عندئذ تقدمت نحوه لأخرجه من ذهوله فسألته:

"ما هذا الذي تحمله بين يديك؟!".

انتفض الرجل وقال:

"هذا وعاء به عدس لغدائك، وهذا كيس فيه شعير لحصانك. لكن لا تؤاخذني يا مولاي، فلو كنت أعرف أنك السلطان لذبحت لك دجاجتين وحمرتهما بالسمن البلدي الممتاز، إكراما لمقامك العالي!!".

وبصعوبة كتمت ضحكاتي لسذاجته البريئة. ولكي أحافظ على كرامتي ومشاعره قلت له متلطفا:

"أنا لست السلطان إنما أنا قريبه، وكنت قد خرجت من عنده غاضبا، لكنه أرسل أهل المدينة لمصالحتي، وسأعود معهم الآن إلى قصري".

ثم أضفت سعيدا به راضيا عنه:

"ولن أنسى أنك تحملت إعداد هذه الضيافة لي وأنت لا تعرفني، وأنا أحب العدس وأفضله على سائر الأطعمة، لذلك اجلس بجواري وتناول طعامك مما أرسله السلطان، ودعني أتفرغ للدس فقد اشتقت إليه".



والتهم الرجل ما لم يسبق أن شاهده أو وضع مثله في فمه مما أحضره أصحاب المطاعم من أهل المدينة معهم، وجلست بجواره أتناول ألذ عدس تذوقته في حياتي.

وعندما فرغ العدس، وقبل أن يمد الرجل يده ليسترد وعاءه، أفرغت في الوعاء كيسا من الذهب، ففزع الرجل وارتد بعيدا كأنه يرى في الدنانير شبحا أثار خوفه، فقلت له: "هذا واقع وليس حلما.. خذ ما تستحق.. إنني معروف زوج ابنة السلطان، فإذا ذهبت إلى المدينة تعال عندي لأزيد في إكرامك".

بعدئذ أشرت فتحركت القافلة.

وفي مثل لمح البصر كما عند باب المدينة.

وكان الاستقبال فريدا أشبه بالأحلام: الطبول والأبواق والزينات والأغاني والتصفيق والهتاف.

وملك الزمان مع الحاشية والتجار والعسكر يستقبلون قافلتي العجيبة كما لم يسبق أن استقبلوا أحدا!

قافلة غريبة لم ير أحد مثلها من قبل!!

لا جمال ولا حراس ولا بضائع من الهند أو السند. فقط رجال ونساء وشيوخ وأطفال.. صناع وحرفيون وفلاحون.. وأعداد لا نهاية لها من حيوانات حقول المدينة مزينة بالورود والزهور وشرائط الألوان وسعف النخل، محملة بمختلف المحصولات، والأدوات، والمصنوعات مما أبدعته أيدي الحرفيين من سجاد وخزف وزجاج وملابس وأقمشة وآلات.

ساعات طويلة بعد ساعات، وقافلة الفرح والإنتاج تدخل من باب السور، وكأن كل أهل المدينة يعودون إليها من نزهة حافلة بحب الحياة في يوم صحو من أيام الربيع.

يغنون ويعزفون ويرقصون، ويهللون ويزغردون، في موكب للسعادة والبهجة!

قافلة لا يتصورها الإنسان إلا في الأحلام!

ولم يسأل أحد عن الجمال وحراسها، ولا عن بضائع الهند والسند.

ضاعت تلك التساؤلات أمام فرحة أهل المدينة بحياتهم وإنتاجهم وبالرزق الوفير.



وقبل أن يفيق الملك ومن معه من دهشتهم، كان حاملو الصناديق قد وصلوا إلى أبواب قصري، فتركوا أمامها ما معهم من ثروات متلألئة باهرة.

وسرت مع الملك والتجار إلى قصرؤي.

وأمام أبواب القصر أعطيت كل تاجر ضعف ما أخذت منه.

وسلمت نصف الباقي إلى أمين الخزانة الملكية "بيت مال الشعب".

وعاد الأمين يهرول قائلا لملك الزمان.

"الخزانة امتلأت إلى حافتها يا مولاي، ولم يبق فيها متسع لمزيد".

أما النصف الباقي فقد رحت أوزعه على أهل المدينة.

أملأ كفي وأعطي كل أسرة ما تستحق.

وكانت زوجتي العزيزة بجواري تطوقني بذراعها.

ورغما عني تلفت أبحث عن وزير السوء، لكن أحدا لم يره بعد ذلك أبدا في مدينتنا.

وانتهى النهار وأنا أقول لأهل المدينة: "حقق الله أحلامكم، كما حقق فيكم أحلامي!

تمت

رقم الإيداع	٣٠٩٠/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولي	ISBN 977- 02-6565- 9

٤٩/ ٢٠٠٣/ ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

صدر منها :

١ - عمرون شاه .
٢ - مملكة السحر .
٣ - كريم الدين البغدادى .
٤ - آلة الزمن .
٥ - الأمير والفقير .
٦ - كتاب الأدغال .
٧ - بينوكيو .
٨ - نبوءة المنجم .
٩ - روبن هود .
١٠ - دون كيشوت .
١١ - ايفنهو .
١٢ - جزيرة الكنز .
١٣ - كنوز الملك سليمان .
١٤ سجين زندا .
١٥ - الزنبقة السوداء .
١٦ - مون فليت .
١٧ - مقبرة الأفيال .
١٨ - الربان بلود .
١٩ - تيودورا .
٢٠ - أوليفر تويست .
٢١ - دافيد كوبر فيلد .
٢٢ - فى مهب الريح .
٢٣ - الفخ الذهبى .
٢٤ - عودة المحارب .
٢٥ - حصان طروادة .
٢٦ - نساء صغيرات .
٢٧ - توم سوير .
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن .
٢٩ - الربان الجرىء .
٣٠ - العم نعناع .
٣١ - أم حنان .
٣٢ - كوخ العم توم .
٣٣ - سميراميس .
٣٤ - بامبى .
٣٥ - صديقى فوق الشجرة .
٣٦ - الطفلة المدللة .
٣٧ - الأرض الغامضة .
٣٨ - مولد بطل .
٣٩ - رحلة فى عالم مجهول .
٤٠ - سندريلا تعود .
٤١ - غدا .. سأغنى مرة أخرى .
٤٢ - جليلة وحسان اليمانى .
٤٣ - معروف فى بلاد الفلوس .

دار المعارف

٢١٢٧٧٥/٠١

